الغَيْب

عناصر الموضوع

مفهوم الغيب	٧٨
الغيب في الاستعمال القرآني	٧٩
الألفاظ ذات الصلة	٨٠
منزلة الإيمان بالغيب	٨٢
أنواع الغيب ومفاتحه	٩٥
ادعاء علم الغيب	١١٠
نتائج الإيمان بالغيب أو إنكاره	١٢٧

مفهوم الغيب

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (غيب) تدل على تستر الشيء عن العيون، فالغيب: ما غاب، مما لا يعلمه إلا الله، ويقال: ووقعنا في غيبةٍ وغيابة، أي: هبطة من الأرض يغاب فيها، والغابة: الأجمة[١].

والغيب: خلاف الشهادة، واستعمل في كل غائب عن الحاسة، وعما يغيب عن علم الإنسان بمعنى: الغائب، وكل مكان لا يدرى ما فيه فهو غيبٌ، وجمعه غيوب.

والغيب: المطمئن من الأرض؛ لأنه غاب عن الأبصار، و(الغيبة): الوقيعة في الناس؛ لأنها لا تقال إلا في غيبة، مأخوذة من الاغتياب، ويقال: اغتاب فلانٌ فلانًا يغتابه اغتيابًا وغيبة، وقال بعضهم: بدا غيبان الشجرة، وهي عروقها التي تغيبت في الأرض، فحفرت عنها حتى ظهرت[٢].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الواحدي: «الغيب هو ما غاب علمه عن الحس والضرورة، مما يدرك بالدليل»[٣].

وقال الراغب الأصفهاني: «هو مالا يقع تحت الحواس، ولا تقتضيه بدائة العقول، وإنما يعلم بخبر الأنبياء عليهم السلام، وبدفعه يقع على الإنسان اسم الإلحاد»[٤].

وقال المناوي: «الغيب ما غاب عن الحس، ولم يكن عليه علم يهتدي به العقل، فيحصل به العلم»[٥].

إذًا فالغيب: ما غاب عن الحواس، أو ما لا يقع تحت الحواس ولا تقتضيه بدائة العقول، بحيث لا يدرك بواحدٍ منهما ابتداء، ونتوصل إلى معرفته بالخبر الصادق، وبالآثار التي تدل عليه.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٠٣.

(٢) انظر: الصحاح، الجوهري ١/ ١٩٦، تهذيب اللغة، الأزهري ٢/ ١٨٣، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٦/ ٢٥، لسان العرب، ابن منظور ١/ ٦٥٤، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ٣/ ٤٣١، تاج العروس، الزبيدي ٢/ ٤٩٨-٥٠٢.

(٣) التفسير البسيط، الواحدي ٢/ ٦٩.

(٤) المفردات ص ٣٦٦.
وانظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٨، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ٥٣.

(٥) التوقيف على مهمات التعاريف ص ٥٤٤.

الغيب في الاستعمال القرآني

وردت مادة (غيب) في القرآن الكريم (٥٩) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
اسم فاعل	٤	﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾ [الأعراف:٧]
مصدر	٥٣	﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦﴾ [الجن:٢٦]
اسم	٢	﴿وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠﴾ [يوسف:١٠]

وذكر بعض أصحاب الوجوه والنظائر أن الغيب في القرآن على أحد عشر وجهًا[٢]، لكن بالتأمل في هذه الوجوه نجد أن الغيب في الاستعمال القرآني يرجع إلى وجهين:

الأول: كل ما غاب عن العيون: سواء كان محصلًا في القلوب أو غير محصل، مما لا يعلمه إلا الله[٣]، قال الله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [مريم: ٦١]. أي: هي من الغيب الذي يؤمنون به وما رأوه[٤]؛ لأنهم لم يروها ولم يعاينوها، فهي غيب لهم[٥].

الثاني: الظن: ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [سبأ: ٥٣]. يعني: يرمون بالظن.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٥٠٧.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص٣٥٠، ٣٥١، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص٤٥٧-٤٥٨.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٠٣، لسان العرب، ابن منظور ١/ ٦٥٤.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٤٦.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٥٧٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ القضاء:

القضاء لغة:

قضى يقضي قضاء فهو قاضٍ إذا حكم وفصل، وقضاء الشيء: إحكامه وإمضاؤه والفراغ منه فيكون بمعنى: الخلق، والقضاء في اللغة على وجوه، مرجعها إلى انقطاع الشيء وتمامه، القضاء المقرون بالقدر، والمراد بالقدر التقدير، وبالقضاء الخلق[١].

القضاء اصطلاحًا:

«عبارة عن الحكم الكلي الإلهي في أعيان الموجودات على ما هي عليه من الأحوال الجارية في الأزل إلى الأبد»[٢].

وقيل: تقدير الله للكائنات حسبما سبق به علمه، واقتضته حكمته[٣].

الصلة بين الغيب والقضاء:

القضاء جزء من الأمور الغيبية، فالغيب أعم من القضاء.

٢ القدر:

القدر لغة:

من القدرة، فالله القادر والمقتدر والقدير، يقال: قدر الإله كذا تقديرًا، وإذا وافق الشيء الشيء قلت: جاءه قدره، والقدر القضاء والحكم، وهو ما يقدره الله عز وجل من القضاء ويحكم به من الأمور[٤].

القدر اصطلاحًا:

«القدر خروج الممكنات من العدم إلى الوجود، واحدًا بعد واحد، مطابقًا للقضاء، والقضاء في الأزل، والقدر فيما لا يزال»[٥].

وقيل: هو علم الله تعالى بالأشياء وكتابته لها قبل كونها، على ما هي عليه، ووجودها على

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ١٨٦.
(٢) التعريفات، الجرجاني ١/ ١٧٧.
(٣) انظر: رسائل في العقيدة، ابن عثيمين ص٣٧.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٧٤.
(٥) التعريفات، الجرجاني ص ١٧٤.

ما سبق به علمه، وكتابته بمشيئته وخلقه[١].

الصلة بين الغيب والقدر:

الغيب أعم من القدر، فالقدر جزء من الغيب.

٣ الشهادة:

الشهادة لغة:

أصل معنى الشهادة في اللغة يدل على حضور وعلم وإعلام، والشاهد هو الحاضر[٢].

الشهادة اصطلاحًا:

والمشاهدة هي الإدراك بإحدى الحواس الظاهرة أو الباطنة، والمشاهدات هي المحسات، أي: الأمور التي نحكم عليها بإحدى الحواس، والمراد بعالم الشهادة: كل ما هو حاضر مشاهد، نستطيع أن ندركه بحواسنا ونحكم عليه بها[٣].

الصلة بين الغيب والشهادة:

هما ضدان، فالغيب مالا يقع تحت الحواس، والمشاهد المحسوس.

(١) انظر: تعريف القضاء والقدر وحكم الإيمان به، محمد الشاوي، شبكة الألوكة.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٢١.
(٣) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ١/ ٢٠٨، التعريفات، الجرجاني ص ١٠٩، كشاف اصطلاحات الفنون، التهانوي ١/ ١٠٤٣.

منزلة الإيمان بالغيب

إن القرآن الكريم دعوةٌ للناس جميعًا على اختلاف حظوظهم من العقل والقدرة على التفكير؛ لذا كان منه ما يتجه للقلب ليتفتح للموعظة، وكان منه ما يتجه للعقل ليذعن للمنطق والدليل، وكان منه -بجانب هذا وذاك- ما يشتمل على الحقيقة سافرةً يفهمها الجميع، وكان منه ما يجيء في شكل أمثالٍ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وهذا «لأن الأمثال والتشبيهات هي الطرق إلى المعاني المحتجبة في الأستار»(١).

فكان لابد إذًا من أن يتجه القرآن الكريم لتصحيح العقيدة قبل كل شيء، وبيان منزلة الإيمان بالغيب والحث عليه، ولبيان الحق في هذه القضية العقدية الخطيرة المؤثرة في الحياة البشرية، بوسائل وأساليب متنوعة، ونهج في ذلك منهجًا متكاملًا متوافقًا مع الفطرة والعقل(٢).

ويمكن إجمال هذه الأساليب في الآتي:

أولًا: اختصاص الله تعالى وحده بعلم الغيب:

تضافرت الآيات القرآنية الكريمة في بيان اختصاص الله تعالى وحده بعلم الغيب المطلق، بما لا يدع مجالًا للشك والريب، فهو سبحانه وحده الذي يعلم ذلك ويحيط به إحاطة شامله، وما كان لأحدٍ أن يطلع على شيء منه إلا باطلاع الله تعالى له عليه وفق حكمته ومشيئته. وسنجتزئ هنا ببعض النصوص الكريمة في ذلك، وسيأتي مزيد بيانٍ ينطوي على جملة من الأحاديث.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

قال إمام المفسرين أبو جعفرٍ الطبري رحمه الله: «اختلف أهل التأويل في تأويل هذه الآية؛ فقال السدي: وما كان الله ليطلع محمدًا على الغيب، ولكن الله اجتباه فجعله رسولًا.

وقال ابن إسحاق: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ فيما يريد أن يبتليكم به، لتحذروا ما يدخل عليكم فيه ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ فيصطفيه ويعلمه.

ثم قال: وأولى الأقوال في ذلك بتأويله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ﴾ على ضمائر قلوب عباده، فتعرفوا المؤمن منهم من المنافق

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٩١.
(٢) انظر: لعقيدة الإسلامية في القرآن الكريم، عثمان جمعة ضميرية، ص٢٦-٦٢.

والكافر، ولكنه يميز بينهم بالمحن والابتلاء -كما ميز بينهم بالبأساء يوم أحد- وجهاد عدوه، وما أشبه ذلك من صنوف المحن، حتى تعرفوا مؤمنهم وكافرهم ومنافقهم، غير أنه -تعالى ذكره- قال: ﴿يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ فيصطفيه، فيطلعه على بعض ما في ضمائر بعضهم، بوحيه ذلك إليه ورسالته»[1].

ولئن ذكر الطبري رحمه الله بعضًا مما تصدق عليه الآية الكريمة، فإنها تبقى أبعد مدىً في الدلالة والشمول، قال ابن سعدي رحمه الله: «ما كان في حكمة الله أن يترك المؤمنين على ما أنتم عليه من الاختلاط وعدم التميز ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾، والمؤمن من المنافق، والصادق من الكاذب.

ولم يكن في حكمته أيضًا أن يطلع عباده على الغيب الذي يعلمه من عباده فاقتضت حكمته الباهرة أن يبتلي عباده، ويفتنهم بما به يتميز الخبيث من الطيب، من أنواع الابتلاء والامتحان، فأرسل الله رسله، وأمر بطاعتهم، والانقياد لهم، والإيمان بهم، ووعدهم على الإيمان والتقوى الأجر العظيم. فانقسم الناس بحسب اتباعهم للرسل قسمين: مطيعين وعاصين، ومؤمنين ومنافقين، ومسلمين وكافرين؛ ليرتب على ذلك الثواب والعقاب، وليظهر عدله وفضله، وحكمته لخلقه»[2].

ثم جاءت آية مفاتح الغيب تحصر علم الغيب بالله تعالى[3]، فقال سبحانه: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وهذه الآية العظيمة من أعظم الآيات تفصيلًا لعلمه المحيط، وأنه شامل للغيوب

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٤٢٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص١٥٨.
وقال ابن عاشور في التحرير والتنوير ٤/ ١٧٩: «﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ﴾ عطف على قوله: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ﴾ يعني: أنه أراد أن يميز لكم الخبيث فتعرفوا أعداءكم، ولم يكن من شأن الله إطلاعكم على الغيب، فلذلك جعل أسبابًا من شأنها أن تستفز أعداءكم فيظهروا لكم العداوة فتطلعوا عليهم، وإنما قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾، لأنه تعالى جعل نظام هذا العالم مؤسسًا على استفادة المسببات من أسبابها، والنتائج من مقدماتها».

(٣) وليس في الآية الكريمة أداة حصر، كما في حديث مفاتح الغيب خمس، ثم قرأ الآية الكريمة كما سيأتي.ووجه الحصر في هذه الأمور الخمسة: أن الفعل إذا كان عظيم الخطر، وما ينبني عليه الفعل رفيع الشأن، فهم منه الحصر على سبيل الكناية، لاسيما إذا لوحظ فيه ما ذكر في أسباب النزول من أن العرب كانوا يدعون علم نزول الغيث، فيشعر بأن المراد من الآية نفي علمهم بذلك واختصاصه بالله سبحانه وتعالى وحده، وفي تقديم قوله: ﴿وَعِندَهُۥ﴾ ما يشعر بذلك أيضًا. انظر:فتح الباري، ابن حجر ١/ ١٢٤، عمدة القاري، العيني ٢/ ٢٩٣.

كلها، التي يطلع منها ما شاء من خلقه، وكثيرٌ منها طوى علمه عن الملائكة المقربين، والأنبياء المرسلين، فضلًا عن غيرهم من العالمين، وأنه يعلم ما في البراري والقفار، من الحيوانات، والأشجار، والرمال والحصى، والتراب، وما في البحار من حيواناتها، ومعادنها، وصيدها، وغير ذلك مما تحتويه أرجاؤها، ويشتمل عليه ماؤها.

ولما طلب كفار قريش من النبي صلى الله عليه وسلم آية تدل على صدقه عندما ظنوا أنه غير مؤيد من الله، أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يجيب عن اقتراحهم بما هو الحقيقة المرشدة -وإن كانت أعلى من مداركهم- جوابًا فيه تعريض بالتهديد لهم.

فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس: ٢٠].

أي: إن الأمور المغيبة لا يقدر عليها إلا الله تعالى وحده.

وجاء الكلام بصيغة القصر للرد عليهم في اعتقادهم أن في مكنة الرسول الحق أن يأتي بما يسأله قومه من الخوارق، فجعلوا عدم وقوع مقترحهم علامة على أنه ليس برسول من الله، فلذلك رد عليهم بصيغة القصر الدالة على أن الرسول ليس له تصرف في إيقاع ما سألوه من أمور الغيب؛ ليعلموا أنهم يرمون بسؤالهم إلى الجراءة على الله تعالى بالإفحام[1].

ثم جاء الحصر والقصر بأسلوب آخر في موضع آخر، فقال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣].

يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمدٍ صلى الله عليه وسلم: ولله ملك كل ما غاب عنك في السموات والأرض فلم تطلع ولم تعلمه، كل ذلك بيده وبعلمه، لا يخفى عليه منه شيء، وهو عالم بما يعمله مشركو قومك، وما إليه مصير أمرهم، من إقامة على الشرك، أو إقلاعٍ عنه وتوبة، وإلى الله معاد كل عاملٍ وعمله، وهو مجازٍ جميعهم بأعمالهم[2].

ففي الآية الكريمة بيان اختصاص الله تعالى بعلم الغيب لأن اللام في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ﴾ هي لام الملك، وهو ملك إحاطة العلم، أي: لله ما غاب عن علم الناس في السماوات والأرض. وهذا كلام يجمع بشارة المؤمنين بما وعدوا من النعيم المغيب عنهم، ونذارة المشركين بما توعدوا به من العذاب المغيب عنهم في الدنيا والآخرة. وتقديم المجرورين في

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ١٣١.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٥٤٤-٥٤٥.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ لإفادة الاختصاص، أي: إن الله تعالى لا غيره، يملك غيب السماوات والأرض؛ لأن ذلك مما لا يشاركه فيه أحد[1].

ثم يخبر الله تعالى في آية أخرى بأنه المنفرد بعلم غيب السماوات والأرض، فيقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

فالغيوب كلها -كتلك التي تقدمت الإشارة إليها في الآيات السابقة- اختص الله بعلمها، فلم يعلمها ملك مقرب ولا نبيٌّ مرسل، وإذا كان هو المنفرد بعلم ذلك المحيط علمه بالسرائر والبواطن والخفايا فهو الذي لا تنبغي العبادة إلا له[2].

وقد تقتضي حكمة الله تعالى أن يطلع أحد رسله على طرف من هذا الغيب، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٦-٢٨].

قال ابن الجوزي رحمه الله: «وذلك لأن علم الغيب لله وحده، فلا يطلع على غيبه الذي يعلمه أحدًا من الناس ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾؛ لأن من الدليل على صدق الرسل إخبارهم بالغيب. والمعنى: أن من ارتضاه للرسالة أطلعه على ما شاء من غيبه ثم ذكر سبحانه أنه يحفظ ذلك الذي يطلع عليه الرسول، فقال تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أي: من بين يدي الرسول، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ أي: يجعل له حفظةً من الملائكة يحفظون الوحي من أن تسترقه الشياطين، فتلقيه إلى الكهنة، فيتكلمون به قبل أن يخبر النبي صلى الله عليه وسلم الناس. وقال الزجاج: «﴿يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ﴾ يدي الملك ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾. وقيل: يسلك من بين يدي الوحي. فـ (الرصد) من الملائكة يدفعون الشياطين عن أن تستمع ما ينزل من الوحي»[3].

ثانيًا: الإيمان بالغيب من صفات المؤمنين:

يصف الله سبحانه وتعالى المؤمنين في مواضع كثيرة من القرآن بأنهم ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾، فيجعل هذه الصفة قاعدةً من قواعد الإيمان الأساسية وركنًا من أركانه، وهذا منهج قرآني ونبويٌّ، فكثيرًا ما يجعل الركن صفةً للمؤمنين ملازمة لهم، كما في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى

(١) انظر: التحرير والتنوير ١٢/ ١٩٤.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٦٠٨.
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ٦/ ٨٤.

لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١ - ٥].

وهذا مشهد وديع أليف، رضي جميل، ترسمه الآيات الكريمة. إنه مشهد الجنة، تقرب من المتقين؛ حتى تتراءى لهم من قريب، مع الترحيب والتكريم: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝٣١ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٠ -٣٣].

والتكريم في كل كلمة وفي كل حركة، فالجنة تقرب وتزلف، فلا يكلفون مشقة السير إليها، بل هي التي تجيء: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾! ونعيم الرضى يتلقاهم مع الجنة: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ فيوصفون هذه الصفة من الملأ الأعلى، ويعلمون أنهم في ميزان الله أوابون، حفيظون، يخشون الرحمن ولم يشهدوه، منيبون إلى ربهم طائعون[1].

قال محيي السنة الإمام البغوي رحمه الله: «﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ﴾ قربت وأدنيت، ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ الشرك، ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ ينظرون إليها قبل أن يدخلوها. ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ قرأ ابن كثير بالياء والآخرون بالتاء، يقال لهم: هذا الذي ترونه ما توعدون على ألسنة الأنبياء عليهم السلام، ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ رجاع إلى الطاعة عن المعاصي.

قال سعيد بن المسيب: هو الذي يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب.

وقال الشعبي ومجاهد: الذي يذكر ذنوبه في الخلاء فيستغفر منها.

وقال الضحاك: هو التواب.

وقال ابن عباس وعطاء: المسبح.

ومعنى الآية: من خاف الرحمن وأطاعه بالغيب ولم يره. وقال الضحاك والسدي: يعني في الخلوة حيث لا يراه أحد. قال الحسن: إذا أرخى الستر وأغلق الباب. ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ مخلصٍ مقبلٍ إلى طاعة الله.

﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ أي: يقال لأهل هذه الصفة: ادخلوها. أي: ادخلوا الجنة ﴿بِسَلَٰمٍ﴾ بسلامة من العذاب والهموم. وقيل بسلام من الله وملائكته عليهم. وقيل: بسلامة من زوال النعم، ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾، وذلك أنهم يسألون الله تعالى حتى تنتهي مسألتهم فيعطون ما شاؤوا، ثم يزيدهم الله من عنده ما لم يسألوه، وهو قوله: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾، يعني: الزيادة لهم في النعيم ما لم يخطر ببالهم. وقال جابر وأنس: هو النظر إلى وجه الله

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٣٦٥.

الكريم»[1].

وهو المعنى نفسه يتكرر في آيات أخرى تجعل الإيمان بالغيب من صفات المؤمنين والمؤمنات، وترتب على ذلك آثاره الهائلة العظيمة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٨-٤٩].

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤].

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [فاطر: ١٨].

ثالثًا: التلازم بين أركان الإيمان والغيب:

والإيمان بالله سبحانه وتعالى وهو أعظم أركان الإيمان وأصلها، هو إيمانٌ بالغيب.

فذات الله سبحانه غيب بالقياس إلى البشر، فإذا آمنوا به فإنما يؤمنون بغيب، يجدون آثار فعله، ولا يدركون ذاته، ولا كيفيات أفعاله.

والإيمان بالآخرة كذلك، هو إيمان بالغيب؛ فالساعة بالقياس إلى البشر غيب، وما يكون فيها من بعث وحساب وثواب وعقاب كله غيب يؤمن به المؤمن، تصديقًا لخبر الله سبحانه وتعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣].

والإيمان بالملائكة عليهم السلام إيمان بالغيب، لا يعرف عنهم البشر إلا ما يخبرهم به الله تعالى، على قدر طاقتهم وحاجتهم، وما كان البشر حاضرين شاهدين على خلق الملائكة وإيجادهم: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [الصافات: ١٤٩-١٥٤].

والغيب الذي يتحقق الإيمان بالتصديق به يشمل حقائق أخرى يذكرها القرآن الكريم في وصف واقع المؤمنين وعقيدتهم الشاملة كما في قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا

(١) معالم التنزيل، البغوي ٧/ ٣٦٢-٤٦٣.

﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فنجد في هذا النص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، كلٌ آمن بالله -وهو غيب- وآمن بما أنزل الله على رسوله، وما أنزل الله على رسوله فيه جانب من اطلاعه صلى الله عليه وسلم على جانب من الغيب بالقدر الذي قدره الله سبحانه كما قال في الآية الأخرى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٦-٢٨].

ويبقى من الغيب الذي لا يقوم الإيمان إلا بالتصديق به: قدر الله -وهو غيب لا يعلمه الإنسان حتى يقع- كما جاء في قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣].

وهذا التلازم بين الإيمان بالغيب وسائر أركان الإيمان يدل عليه أيضًا ويؤكده: أن الله تعالى جعل الكفر بشيء من الأركان، وهو أيضًا غيب، جعله كفرًا بالله تعالى يستحق صاحبه العذاب المهين[1].

فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ [النساء: ١٥٠ - ١٥١].

رابعًا: حسن عاقبة الذين يؤمنون بالغيب:

قال سبحانه وتعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦١ - ٦٣].

قال السمين الحلبي في (الدر المصون): «قوله: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أن الباء حاليةٌ. وفي صاحب الحال احتمالان، أحدهما: ضمير الجنة وهو عائدٌ الموصول، أي: وعدها، وهي غائبةٌ عنهم لا يشاهدونها. والثاني: أن يكون من ﴿عِبَادَهُ﴾، أي: وهم غائبون عنها لا يرونها، إنما آمنوا بمجرد الإخبار منه. والوجه الثاني: أن الباء سببيةٌ، أي: بسبب تصديق الغيب، وبسبب الإيمان به»[2].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٣٥٢-٣٥٣، البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٣٨٥، دراسات قرآنية، محمد قطب، ص ١٠٢، الإسلام وعلاقته بالشرائع الأخرى، عثمان ضميرية، ص٢٢-٢٥.

(٢) انظر: الدر المصون ٧/ ٦١٢.

وهذا الوجه الثاني ألصق وأوضح في الدلالة علة ما نريد في هذه السطور، فإن إيمانهم بالغيب، وهو أول صفات المؤمنين المتقين المهتدين، هو سبب دخولهم تلك الجنة التي وعدها الله تعالى عباده المؤمنين.

و لابأس بمقتطفات من أقوال المفسرين في تفسير هذه الآية الكريمة. قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى: الجنات التي يدخلها التائبون من ذنوبهم، هي ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾ أي: إقامة ﴿ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ بظهر الغيب، أي: هي من الغيب الذي يؤمنون به وما رأوه؛ وذلك لشدة إيقانهم وقوة إيمانهم. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا﴾ تأكيد لحصول ذلك وثبوته واستقراره؛ فإن الله لا يخلف الميعاد ولا يبدله، كقوله: ﴿كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا﴾ [المزمل: ١٨].

أي: كائنًا لا محالة. وقوله هاهنا: ﴿مَأۡتِيّٗا﴾ أي: العباد صائرون إليه، وسيأتونه»[(١)].

ثم يأتي البيان بأن عاقبة الإيمان بالغيب هي دخول الجنة التي يورثها الله عباده الصالحين المتقين. ولا نزال نذكر أن مفتتح سورة البقرة جعلت الكتاب الكريم هدىً للمتقين الذين يأتي في أول صفاتهم صفة الإيمان بالغيب. وهنا يأتي قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا﴾ أي: هذه الجنة التي وصفنا بهذه الصفات العظيمة هي التي نورثها عبادنا المتقين، وهم المطيعون لله عز وجل في السراء والضراء، والكاظمون الغيظ والعافون عن الناس.

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: «قوله: ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ يحتمل أن تكون متعلقة بـ ﴿وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ فيكون المعنى على هذا، أن الله وعدهم إياها وعدًا غائبًا، لم يشاهدوه ولم يروه فآمنوا بها، وصدقوا غيبها، وسعوا لها سعيها، مع أنهم لم يروها، فكيف لو رأوها، لكانوا أشد لها طلبًا، وأعظم فيها رغبة، وأكثر لها سعيًا! ويكون في هذا مدح لهم بإيمانهم بالغيب، الذي هو الإيمان النافع.

ويحتمل أن تكون متعلقة بـ﴿عِبَادَهُۥ﴾، أي: الذين عبدوه في حال غيبهم وعدم رؤيتهم إياه، فهذه عبادتهم ولم يروه، فلو رأوه لكانوا أشد له عبادة، وأعظم إنابة، وأكثر حبًا، وأجل شوقًا! ويحتمل أيضًا أن المعنى: هذه الجنات التي وعدها الرحمن عباده، من الأمور التي لا تدركها الأوصاف، ولا يعلمها أحد إلا الله، ففيه من التشويق لها، والوصف المجمل ما يهيج النفوس، ويزعج الساكن إلى طلبها، فيكون هذا مثل قوله: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٤٧-٢٤٨.

والمعاني كلها صحيحة ثابتة»[1].

ولا يقتصر حسن عاقبة المؤمنين على ما تستقيم به حياتهم الأخروية فحسب، بل إن العاقبة الحسنة تظهر وتبرز هنا في الدنيا قبل الآخرة، فالمؤمنات الصالحات القانتات الحافظات للغيب، تستقيم حياتهن مع أزواجهن في بيوتهن، وهن موضع عناية ووصية يوصي الله تعالى بها الأزواج رعيةً لهن بما حفظن بالغيب.

قال الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ﴾ [النساء: ٣٤].

فإنه يعني: حافظات لأنفسهن عند غيبة أزواجهن عنهن، في فروجهن وأموالهم، وللواجب عليهن من حق الله في ذلك وغيره، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**خير النساء امرأةٌ إذا نظرت إليها سرتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك**). قال: ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية)[2].

قال الإمام أبو جعفر الطبري رحمه الله: «وهذا الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدل على صحة ما قلنا في تأويل ذلك، وأن معناه: صالحاتٌ في أديانهن، مطيعاتٌ لأزواجهن، حافظات لهم في أنفسهن وأموالهم. وفي الكلام متروك استغني بدلالة الظاهر من الكلام عليه من ذكره، ومعناه: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤].

فأحسنوا إليهن وأصلحوا. قال ابن عباس رضي الله عنهما قوله: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾، يعني: إذا كن هكذا، فأصلحوا إليهن»[3].

وقال الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله: «هذا تفصيل لحال النساء في هذه الحياة المنزلية التي تكون المرأة فيها تحت رياسة الرجل، ذكر أنهن فيها قسمان: صالحات وغير صالحات.

وأن من صفة الصالحات القنوت، وهو السكون والطاعة لله تعالى، وكذا لأزواجهن بالمعروف وحفظ الغيب. أي: حافظات لكل ما هو خاص بأمور الزوجية الخاصة بالزوجين، فلا يطلع أحد منهن على شيء مما هو خاص بالزوج.

ويدخل في هذا وجوب كتمان ما يكون

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٤٩٦.

(٢) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده، ص ٣٠٦، والحاكم في المستدرك ٢/ ١٦١، وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ٢٩٥-٢٩٨، ومعالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢٠٧-٢٠٨.

بينهن وبين أزواجهن في الخلوة، ولا سيما حديث الرفث، فما بالك بحفظ العرض، و هذه العبارة هي أبلغ ما في القرآن من دقائق كنايات النزاهة، تقرؤها خرائد العذارى جهرًا، ويفهمن ما تومئ إليه مما يكون سرًا، وهن على بعد من خطرات الخجل أن تمس وجدانهن الرقيق بأطراف أناملها، فلقلوبهن الأمان من تلك الخلجات التي تدفع الدم إلى الوجنات.

ناهيك بوصل حفظ الغيب بما حفظ الله، فالانتقال السريع من ذكر ذلك الغيب الخفي إلى ذكر الله الجلي، يصرف النفس عن التمادي في التفكر فيما يكون وراء الأستار من تلك الخفايا والأسرار، وتشغلها بمراقبته عز وجل.

والمعنى: حافظات للغيب بحفظ الله أي: بالحفظ الذي يؤتيهن الله إياه بصلاحهن، فإن الصالحة يكون لها من مراقبة الله تعالى وتقواه ما يجعلها محفوظة من الخيانة، قوية على حفظ الأمانة، أو حافظات له بسبب أمر الله بحفظه، فهن يطعنه ويعصين الهوى، فعسى أن يصل معنى هذه الآية إلى نساء عصرنا اللواتي يتفكهن بإفشاء أسرار الزوجية، ولا يحفظن الغيب فيها».

وقال العلامة المفسر أبو السعود العمادي رحمه الله: «﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ شروع في تفصيل أحوالهن وبيان كيفية القيام عليهن بحسب اختلاف أحوالهن، أي: فالصالحات منهن ﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾ أي: مطيعات لله تعالى قائمات بحقوق الأزواج ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ أي: لمواجب الغيب، أي: لما يجب عليهن حفظه في حال غيبة الأزواج من الفروج والأموال. وقيل: حافظات لأسرارهم.

﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ ما مصدرية، أي: بحفظه تعالى إياهن بالأمر بحفظ الغيب والحث عليه بالوعد والوعيد والتوفيق له، أو موصولة أي: بالذي حفظ الله لهن عليهم من المهر والنفقة والقيام بحفظهن والذب عنهن.

وقرىء ﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهَ﴾ بالنصب على حذف المضاف أي: بالأمر الذي حفظ حق الله تعالى وطاعته وهو التعفف والشفقة على الرجال»[1].

وفي هذا المعنى نفسه تتضافر الآيات الكريمة، في بيان ما ينتظر المؤمنين بالغيب من نعيم دائم لا ينقطع، ومن مزيد لهذا النعيم مما ادخره الله تعالى لهم من رؤية الله تعالى، وهي من أعلى وأعظم أنواع النعيم بعد دخول الجنة، مع ما أكرمهم الله تعالى به من الفوز والمغفرة والأجر الكريم، فقال

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ٧٧.
وأفاض في هذا المعنى السيد رشيد رضا في المنار ٥/ ٥٥-٥٨.

الله تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٣-٣٥].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢].

خامسًا: طريقة القرآن في عرض علم الله الشامل للغيب:

السياق القرآني يعرض المؤثرات العميقة التأثير في القلب البشري، كهذه المؤثرات الغيبية، في رقعة فسيحة هائلة، رقعة فسيحة في الزمان والمكان، وفي الحاضر الواقع، والمستقبل المنظور، والغيب السحيق، وفي خواطر النفس، ووثبات الخيال: ما بين الساعة البعيدة المدى، والغيث البعيد المصدر، وما في الأرحام الخافي عن العيان، والكسب في الغد، وهو قريب من الزمان ومغيب في المجهول، وموضع الموت والدفن، وهو مبعد في الظنون.

إنها رقعة فسيحة الآماد والأرجاء، ولكن اللمسات التصويرية العريضة بعد أن تتناولها من أقطارها، تدق في أطرافها، وتجمع هذه الأطراف كلها عند نقطة الغيب المجهول، وتقف بها جميعا أمام كوة صغيرة مغلقة، لو انفتح منها سم الخياط لاستوى القريب خلفها بالبعيد، و لانكشف منها القاصي والداني، ولكنها تظل مغلقة في وجه الإنسان ووراء علم الإنسان، تبقى خالصة لله لا يعلمها غيره، إلا بإذن منه وإلا بمقدار[1].

«وفي مجال الغيب المكنون، كما في كل مجال من مجالات الكون وآفاقه وآماده، يحيط علم الله سبحانه، وهو العليم بكل شيء، بكل ما في الوجود، كبيره وصغيره، ظاهره وخفيه، دقه وجله، في مجال الزمان: ماضيًا وحاضرًا مهما بلغت كثرة وعظمة، ذاك كله يحيط الله سبحانه وتعالى به علمًا: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

إنها صورة لعلم الله الشامل المحيط، الذي لا يند عنه شيء في الزمان والمكان، في الأرض ولا في السماء، في البر ولا في البحر، في جوف الأرض ولا في طباق الجو، من حي وميت ويابس ورطب، ولكن أين هذا الذي نقوله نحن -بأسلوبنا البشري المعهود- من ذلك النسق القرآني العجيب؟ وأين هذا التعبير الإحصائي المجرد، من ذلك التصوير العميق الموحي؟

إن الخيال البشري لينطلق وراء النص القصير يرتاد آفاق المعلوم والمجهول، وعالم الغيب وعالم الشهود، وهو يتبع ظلال علم الله في أرجاء الكون الفسيح،

(١) في ظلال القرآن ٢١/ ٢٧٩٩.

ووراء حدود هذا الكون المشهود، وإن الوجدان ليرتعش وهو يستقبل الصور والمشاهد من كل فجٍ ووادٍ، وهو يرتاد -أو يحاول أن يرتاد- أستار الغيوب المختومة في الماضي والحاضر والمستقبل البعيد الآماد والآفاق والأغوار، مفاتحها كلها عند الله، لا يعلمها إلا هو، ويجول في مجاهل البر وفي غيابات البحر، المكشوفة كلها لعلم الله. ويتبع الأوراق الساقطة من أشجار الأرض، لا يحصيها عدٌّ، وعين الله على كل ورقة تسقط هنا وهناك. ويلحظ كل حبة مخبوءة في ظلمات الأرض لا تغيب عن عين الله، ويرقب كل رطب ويابس في هذا الكون العريض، لا يند منه شيء عن علم الله المحيط.

إنها جولة تدير الرؤوس، وتذهل العقول. جولة في آماد من الزمان، وآفاق من المكان، وأغوار من المنظور والمحجوب، والمعلوم والمجهول، جولة بعيدة موغلة مترامية الأطراف، يعيا بتصرف آمادها الخيال، وهي ترسم هكذا دقيقةً كاملة شاملة في بضع كلمات، ألا إنه الإعجاز!

وننظر في هذه الآية القصيرة من أي جانب فنرى هذا الإعجاز الناطق بمصدر هذا القرآن.

ننظر إليها من ناحية موضوعها، فنجزم للوهلة الأولى بأن هذا كلام لا يقوله بشر، فليس عليه طابع البشر، إن الفكر البشري -حيث يتحدث عن مثل هذا الموضوع: موضوع شمول العلم وإحاطته- لا يرتاد هذه الآفاق، إن مطارح الفكر البشري وانطلاقاته في هذا المجال لها طابع آخر، ولها حدود، إنه ينتزع تصوراته التي يعبر عنها من اهتماماته، فما اهتمام الفكر البشري بتقصي وإحصاء الورق الساقط في أنحاء الأرض، ومن ثم لا يخطر له أن يتجه هذا الاتجاه ولا أن يعبر هذا التعبير عن العلم الشامل! إنما الورق الساقط شأن يحصيه الخالق، ويعبر عنه الخالق!

وما اهتمام الفكر البشري بكل حبة مخبأة في ظلمات الأرض؟ إن أقصى ما يحفل به بنو البشر هو الحب الذي يخبؤونه هم في جوف الأرض ويرتقبون إنباته، فأما تتبع كل حبة مخبوءة في ظلمات الأرض، فما لا يخطر للبشر على بال أن يهتموا به ولا أن يلحظوا وجوده، ولا أن يعبروا به عن العلم الشامل! إنما الحب المخبوء في ظلمات الأرض شأن يحصيه الخالق، ويعبر عنه الخالق!

وما اهتمام الفكر البشري بهذا الاطلاق: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ إن أقصى ما يتجه إليه تفكير البشر هو الانتفاع بالرطب واليابس ما بين أيديهم، فأما التحدث عنه كدليل للعلم الشامل، فهذا ليس من المعهود في اتجاه

البشر وتعبيراتهم كذلك! إنما كل رطب وكل يابس شأنٌ يحصيه الخالق، ويعبر عنه الخالق!

ولا يفكر البشر أن تكون كل ورقة ساقطة وكل حبة مخبوءة، وكل رطب وكل يابس في كتاب مبين، وفي سجل محفوظ، فما شأنهم بهذا، وما فائدته لهم؟ وما احتفالهم بتسجيله؟ إنما الذي يحصيه ويسجله هو صاحب الملك، الذي لا يند عنه شيء في ملكه الصغير كالكبير، والحقير كالجليل، والمخبوء كالظاهر، والمجهول كالمعلوم، والبعيد كالقريب.

إن هذا المشهد الواسع العميق الرائع، مشهد الورق الساقط من شجر الأرض جميعًا، والحب المخبوء في أطوار الأرض جميعًا والرطب واليابس في أرجاء الأرض جميعًا، إن هذا المشهد كما أنه لا يتجه إليه الفكر البشري والاهتمام البشري، وكذلك لا تلحظه العين البشرية ولا تلم به النظرة البشرية، إنه المشهد الذي يتكشف هكذا بجملته لعلم الله وحده المشرف على كل شيء المحيط بكل شيء الحافظ لكل شيء الذي تتعلق مشيئته وقدرته بكل شيء، الصغير كالكبير، والحقير كالجليل والمخبوء كالظاهر والمجهول كالمعلوم، والبعيد كالقريب.

والذين يزاولون الشعور ويزاولون التعبير من بني البشر يدركون جيدًا حدود التصور البشري وحدود التعبير البشري أيضًا، ويعلمون -من تجربتهم البشرية- أن مثل هذا المشهد لا يخطر على القلب البشري، كما أن مثل هذا التعبير لا يتأتى له أيضًا والذين يمارون في هذا عليهم أن يراجعوا قول البشر كله؛ ليروا إن كانوا قد اتجهوا مثل هذا الاتجاه أصلًا!»[1].

(١) في ظلال القرآن ٧/ ١١١١-١١١٣.

أنواع الغيب ومفاتحه

الغيب نوعان رئيسان:

- نوعٌ أقام الله تعالى عليه دليلًا عقليًا أو سمعيًا، كالخالق وصفاته تبارك وتعالى، واليوم الآخر وأحواله. وهو المراد بالغيب في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾.
- ونوعٌ لم يجعل عليه دليلًا، لا عقليًا ولا سمعيًا، وهذا هو المعني بقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾.

وكل منهما يندرج تحته مراتب فرعية، من حيث إمكانية الاطلاع عليه ومعرفته، وعدم إمكانية ذلك[1].

وفيما يلي إيجاز لهذين النوعين الرئيسين، وما يتفرع عنهما، ثم بيان مفاتح الغيب. وذلك فيما يأتي:

أولًا: الغيب المطلق الحقيقي:

وهو ما يغيب عن الحواس والعقول معًا، ولا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، فهو محجوب عن الخلق جميعًا، ولا يمكن لمخلوق أن يعلمه.

وهذا هو الغيب الذي تتناوله الآية الكريمة: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾[النمل: ٦٥].

وقال الله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

ثم إن الغيب من هذا النوع ينطوي على مرتبتين اثنتين:

المرتبة الأولى: ما ورد فيه نصٌ صريح بأن الله تعالى قد كتمه عن الخلق جميعًا، حتى الأنبياء والملائكة، كعلم قيام الساعة، وسائر الأمور الخمسة التي هي مفاتح الغيب.

فهذا النوع لا سبيل إلى علمه بالوحي ولا بغير الوحي، فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

وهذه الآية الكريمة من سورة لقمان تفسيرٌ لآية سورة الأنعام السابقة: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الآية ٥٩].

وقد جاء في الحديث الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**مفاتيح الغيب خمسٌ لا يعلمها إلا الله؛ لا يعلم ما في غدٍ إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم**

(١) كشاف اصطلاحات الفنون ٣/ ١٠٩٠، وأصله في أنوار التنزيل، البيضاوي، ١/ ٨.

متى يأتي المطر أحدٌ إلا الله، ولا تدري نفسٌ بأي أرضٍ تموت، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله)[1].

وعنه أيضًا رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(مفاتح الغيب خمسٌ، ثم قرأ:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾**)**[2].

وعن بريدة رضي الله عنه مرفوعًا: **(خمسٌ لا يعلمهن إلا الله:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾**)**[3].

ومفاتح الغيب هذه، التي جاءت في سورة لقمان، وفي الأحاديث السالفة، لا مطمع لأحدٍ في علم شيء منها، فمن ادعى علم شيء منها غير مسنده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان كاذبًا في دعواه[4].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد ١٣/ ٣٦١، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، ١/ ٣٩-٤٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، ٨/ ٢٩١، رقم ٥١٣-٥١٤.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٥/ ٣٥٣، والبزار ١٠/ ٢٥، ورجال أحمد رجال الصحيح، كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٩٠-٨٩.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ١/ ١٢٤.

وعلى هذه المرتبة من الغيب يحمل نفي العلم الذي جاء في سورة النمل، في قوله سبحانه وتعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ فهو محجوب حتى عن أنبياء الله تعالى ورسله وملائكته المقربين. وسيأتي فيما بعد إن شاء الله تعالى أن هذا العموم قد يدخله التخصيص في بعض الحالات والمراحل.

المرتبة الثانية: ما لم يرد فيه نصٌ صريح في أن الله كتمه عن الخلق جميعًا، فلله سبحانه وتعالى أن يطلع من شاء من رسله على ما شاء منه، ولا يطلع على هذا النوع أحدًا غير الرسل عليهم الصلاة والسلام.

وقد أخرج الإمام أحمد عن ابن عمر مرفوعًا، وعن ابن مسعود موقوفًا رضي الله عنهم قال: **(أوتي نبيكم صلى الله عليه وسلم مفاتيح كل شيءٍ غير الخمس)**[5].

وأخرج الطيالسي في (مسنده) عن إبراهيم بن سعد، عن الزهري، عن سالم، عن ابن عمر: **(أوتي نبيكم مفاتيح الغيب إلا الخمس)**[6].

(٥) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٨. والطيالسي، ص٥١ و٢٤٩.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٦٣: «أخرجه أحمد وأبو يعلى ورجالهما رجال الصحيح».

(٦) مسند الطيالسي، ص٢٤٩ رقم ١٨٠٩.
وانظر: فتح الباري، ابن حجر ٨/ ٥١٤، وذكره ابن كثير في التفسير: ٣/ ٤٥٥، وقال:

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: (أوتيت مفاتيح كل شيءٍ إلا الخمس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية)[1].

وهذا النوع من الغيب هو الذي يشير إليه قول الله تبارك وتعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

والمراد بالاطلاع على الغيب -في الآية الكريمة- علم ما سيقع قبل أن يقع على تفصيله، فلا يدخل في هذا ما يكشف لهم عن الأمور المغيبة عنهم[2].

فالمدعى في هذا النوع شيئان:

- أنه لا سبيل إلى علمه من غير إخبار الله تعالى.
- أنه لا يصل إلى علمه عن الله تعالى أحدٌ غير الأنبياء.

وعلى هذا الفهم لهذا النوع من الغيب بحصر معرفته بإعلام الله تعالى لمن ارتضى من أنبيائه ورسله ينزل قوله تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٣٧].

وقوله تعالى عن عيسى عليه السلام فيما أعطاه الله من المعجزات: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩].

وكذلك إخباره عليه السلام عن أشياء كثيرة مما أطلعه الله تعالى عليه من فتوحاتٍ إسلامية وقعت كما أخبر بها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، واستشهاد بعض الصحابة، والشهادة لبعضهم وبشارتهم بالجنة، وما يكون من علامات بين يدي الساعة، في أمور كثيرة جدًا واردة في الصحاح وغيرها[3].

ثانيًا: الغيب النسبي أو الإضافي:

وهو ما غاب علمه عن بعض المخلوقين دون بعض، أو غاب عنهم في حال دون حال، بحيث يمكن التعريف به في الدنيا، إما

«هذا إسناد حسن على شرط أصحاب السنن ولم يخرجوه».

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٨٥، وأبو يعلى في المسند رقم ٥١٥٣. ويشهد له ما في الصحيحين كما تقدم.

(٢) انظر: فتح الباري ١٣/ ٣٦٤.

(٣) انظر: المختار من كنوز السنة، محمد عبد الله دراز ص ٢٩٨-٣٠٠، تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٤٢٢-٤٢٦ وما بعدها، الوحي المحمدي، محمد رشيد رضا، ص ٢٠٨.

مطلقًا، أو بشروط واستعدادات لذلك. وهو ينطوي على أربع مراتب.

المرتبة الأولى: أن يغيب الشيء عن حواسك، ولكن يتناوله غيرك بالمشاهدة، كالعلم بالأقطار النائية، والطبقات الأرضية، والأجهزة الداخلية للإنسان والحيوان.

فهذا غيب بالنسبة لبعض الخلق دون بعض، وقد يعلمه الغائب عنه بسماع أخباره المتواترة عمن شاهده وعلمه، فيمكن معرفة هذا النوع مطلقًا، وعندئذ لا يكون غيبًا، أي: بعد هذه المعرفة[1].

المرتبة الثانية: أن يغيب الشيء عن الحواس، ولا يمكن التعريف به في الدنيا بحال من الأحوال؛ إذ تختلف طبيعته عما عرفناه نحن في حياتنا الدنيا، كالحياة البرزخية وما فيها.

فهذا غيبٌ عنا، ولا نستطيع أن نتعرف عليه حاليًا، بل نعقل وجوده بالخبر الصادق، ولم نمر بتجربة أو حال تعرفنا على هذا النوع من عالم الغيب، فهذا يعرفه من يعيش في العالم البرزخي، وكذلك كل ما يعلمه الملائكة عليهم الصلاة والسلام من أمر عالمهم، لا يعلمه البشر مثلًا.

المرتبة الثالثة: أن يغيب الشيء عن حواسنا، ولا يمكننا التعرف عليه في الدنيا إلا على وجه مجمل، فقد أخبر الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم: أن في الجنة لحمًا ولبنًا وعسلًا وخمرًا، ونحو ذلك. وهذا يشبه ما في الدنيا لفظًا ومعنى، ولكنه ليس مثله ولا هو حقيقته. والإخبار عن الغائب لا يفهم إن لم يعبر عنه بالأسماء المعلومة معانيها في عالم الشهادة، و هذه يعلم بها ما في الغائب بواسطة العلم بما في الشاهد، مع العلم بالفارق المميز بينهما، وأن ما أخبر الله به من الغيب أعظم مما يعلم في عالمنا المشاهد. وفي الغائب ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر[2].

وفي الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: **(يقول الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فاقرءوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾)**[3].

فما لا يخطر بالقلوب، إذا عرفت به لم تعرفه إلا إذا كان له نظير، وإلا لم يمكن

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية ٥/ ٧٣، والمنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٤٢٢، وفتح الباري، ابن حجر ١٣/ ٣٦٥، و المختار من كنوز السنة، محمد عبد الله دراز، ص ٢٩٨.

(٢) الرسالة التدمرية، ابن تيمية، ص٦١-٦٢، وهي في مجموع الفتاوى أيضًا ٣/ ١-١٢٨.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٦/ ٣١٨، وفي التفسير ٨/ ٥١٥، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٤/ ٢١٧٤.

التعريف به على وجهه[1].

المرتبة الرابعة: أن يغيب الشيء عن حس الناس جميعًا، ولكنه يكون في متناول عقولهم، يعرفونه بشروط واستعدادٍ لذلك؛ فإن لبعض الغيوب أسبابًا قد يستدل بها عليها.

ومن هذه الشروط والأسباب:

١. التجربة والمقايسة.

كعلم ما سيقع في العام أو الأعوام المقبلة من الكسوف والخسوف، والشروق والغروب، ومنازل الشمس والقمر، ونحو ذلك، استنباطًا من التجارب الكونية، التي أجرى الله تعالى بها سنته في سير الكواكب، وقال في شأنها: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وقال: ﴿وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١٢].

٢. الاستدلالات العقلية.

كما نعلم حياة الجنين بتجربته، وكما نستدل على عقل الرجل بمنطقه، أو بالخلق على خالقه.

فهذا كله من الغيب الذي يتناوله العلم، بل يتناوله الإيمان الذي هو أخص من العلم؛ فإنه علمٌ يطمئن إليه القلب ويرتاح له الوجدان[2].

مفاتح الغيب:

إن مفاتح الغيب التي سبقت الإشارة إليها، هي الطرق والوسائل التي يتوصل بها للغيب أو على خزائن الغيب؛ لأن علمها كلها خاصٌ به تعالى، وأما الأمور التي لها أمارات، مثل: أمارات الأنواء، وعلامات الأمراض عند الطبيب، فتلك ليست من الغيب، بل من أمور الشهادة الغامضة، وغموضها متفاوت، والناس في التوصل إليها متفاوتون، ومعرفتهم بها من قبيل الظن لا من قبيل اليقين، فلا تسمى علمًا.

وقيل: المفاتح جمع مفتح -بفتح الميم- وهو البيت أو المخزن الذي من شأنه أن يغلق على ما فيه ثم يفتح عند الحاجة إلى ما فيه. ونقل هذا عن السدي، فيكون استعارة مصرحة، والمشبه هو العلم بالغيب، شبه في إحاطته وحجبه المغيبات ببيت الخزن تشبيه

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٥/ ٧٣.

(٢) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٥/ ٧٣، ويقول أيضًا في مجموع الفتاوى ٢٤/ ٢٥٦: «أما العلم بالعادة في الكسوف والخسوف، فإنما يعرفه من يعرف حساب جريانهما، وليس خبر الحاسب بذلك من باب علم الغيب ولا من باب ما يخبر به من الأحكام التي يكون كذبه فيها أعظم من صدقه، فإن ذلك قول بلا علم ثابت وبناء على غير أصل صحيح». وانظر: فتح الباري، ابن حجر ١٣/ ٣٦٥، المختار من كنوز السنة، د.محمد عبد الله دراز ص ٢٩٨، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لملا علي القاري ١/ ٦٢.

معقولٍ بمحسوس[1].

وقد جاء النص صريحًا أن هذه المفاتح لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى، يقف الإنسان -مهما أوتي من العلم- عاجزًا عن إدراك شيء منها، بل إن أحدًا من الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين عليهم الصلاة والسلام لا يعرف عنها شيئًا[2].

فقد روى الإمام أحمد رحمه الله عن رجل من بني عامر أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: **(فهل بقي من العلم شيء لا تعلمه؟ قال: (قد علمني الله عز وجل خيرًا، وإن من العلم ما لا يعلمه إلا الله عز وجل: الخمس** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ **الآية)**[3].

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: **(جاء رجل من أهل البادية إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إن امرأتي حبلى، فأخبرني متى تلد؟ وبلادنا مجدبةٌ فأخبرني متى ينزل الغيث؟ وقد علمت متى ولدت فأخبرني متى أموت؟ فأنزل الله عز وجل:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾**)**[4].

وفيما يلي إلماعة موجزة إلى كل هذه المفاتح، وبالله التوفيق.

٣. علم الساعة.

كانت قضية البعث وقيام الساعة وما فيها أمرًا من أشد الأمور غرابة على حس المشركين الذين واجههم النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن ابتعدوا عن دين إبراهيم الخليل عليه السلام دين التوحيد، وكانوا يستبعدون وقوعها، ويعجبون لذلك أشد العجب، ويستنكرون ذلك أشد الاستنكار، وقد حكى الله سبحانه وتعالى عنهم ذلك فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٧-٨].

ولقد أنفق الرسول صلى الله عليه وسلم جهدًا كبيرًا في تقرير حقيقة البعث والقيامة في نفوس الناس؛ إذ لا تستقيم حياة أمة من الأمم ما لم يستقم أمر الآخرة، عقيدةً راسخةً في ضميرها.

وفي هذا يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله: «إن العقيدة في الآخرة فسحة التصور،

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٦/ ١٣٦.

(٢) ولا يفهم من هذا أن الغيب محصور في تلك الخمس التي ذكرها الله تعالى من سورة لقمان وفسر بها النبي عليه الصلاة والسلام مفاتح الغيب، فقد صرح الله تعالى في القرآن الكريم بغيرهن في مواطن كثيرة من ذلك: حقيقة الروح، وتفصيل بدء الخلق وتفصيل النشأة...إلى غير ذلك. وإنما اقتصرت الآية على تلك الخمس؛ لأن النفوس كلها تتطلع وتتشوق إلى معرفتها، ولأنها وردت مجموعة في سؤال الناس للنبي كما سيأتي في السياق.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣٨/ ٣٠٧، والنسائي في عمل اليوم والليلة، رقم ٣١٦. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٦/ ٤٧٧، رقم ٢٧١٢.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٨٨.

وسعة النفس، وامتداد في الحياة ضروريٌّ في تكوين النفس البشرية ذاتها لتصلح أن تناط بها وظيفة القيادة للبشرية والشهادة عليها.

كذلك هي ضرورية لضبط النفس عن شهواتها الصغيرة ومطامعها المحدودة، ولفسحة مجال الحركة حتى لا تيئسها النتائج القريبة، ولا تقعدها التضحيات الأليمة عن المضي في التبشير بالخير وفعل الخير، والقيادة إلى الخير على الرغم من النتائج القريبة والتضحيات الأليمة، وهي صفات ومشاعر ضرورية كذلك للنهوض بتلك الوظيفة الكبيرة.

والاعتقاد في الآخرة مفرق الطريق بين فسحة الرؤية والتصور في نفس الإنسان، وضيق الرؤية واحتباسها في حدود الحس في إدراك الحيوان، وما يصلح إدراك الحيوان في قيادة البشرية والقيام بأمانة الله في الخلافة الراشدة»[1].

والساعة غيبٌ اختص الله تعالى به واستأثر بعلمه، فلم يطلع عليه أحدًا من خلقه جميعًا، بما فيهم الأنبياء المرسلون والملائكة المقربون، رغم ما كان من إكثار المشركين من السؤال عنها، استبعادًا لوقوعها وتعنتًا منهم وجحودًا، فقال سبحانه وتعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣].

وقال: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٧].

وقال: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٥].

وقال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٢-٤٥].

وعندما سأل جبريل عليه السلام النبي صلى الله عليه وسلم متى الساعة؟ قال: (**ما المسئول عنها بأعلم من السائل، وسأخبرك عن أشراطها، إذا ولدت الأمة ربها، وإذا تطاول رعاة الإبل البهم، في البنيان في خمسٍ لا يعلمهن إلا الله. ثم تلا النبي عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾**)[2].

وإذا استأثر الله سبحانه وتعالى بعلم الساعة، فلا فائدة تتحقق من وراء البحث عن زمن وقوعها؛ لأن هذا خارج عن طوق

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٧/ ١٠٦٨- ١٠٧٣، ٩/ ١٤٠٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان، ١/ ١٩، رقم ٥٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، ١/ ٤٠، رقم ١٠.

العلم البشري، فحريٌّ بالعاقل أن يكون على استعداد لها وتهيؤ، فما كان إخفاؤها إلا لحكمة كبرى، فلا يتشاغل الناس عنها إذا كانت بعيدة عنهم، ولا ينصرفون عن العمل للحياة الدنيا إذا كانت قريبة لهم. ولذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول لمن يسأله عن الساعة: **(ويحك! إن الساعة آتيةٌ، فما أعددت لها؟)**[1].

ولئن حجب الله تعالى علم الساعة عن الخلق، فإن حكمته جل شأنه اقتضت أن يكون بين يدي الساعة أمارات وأشراط، تأتي مقدمة لها بين يديها؛ إيقاظًا للغافلين وحثًا لهم على التوبة والاستعداد، فقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ [الحج: ١-٢].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ﴾ [محمد: ١٨].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ۝٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٤٢-٤٣].

فبعثة الرسول محمدٍ صلى الله عليه وسلم من علامات الساعة و أشراطها؛ لأنه خاتم الرسل الذي أكمل الله تعالى به الدين وأقام به الحجة على العالمين، وقد أخبر عن علامات الساعة وأشراطها، وأبان عن ذلك وأوضحه، بما لم يؤته نبيٌّ قبله؛ ولهذا جاء في أسمائه عليه السلام: نبي التوبة ونبي الملحمة، والحاشر الذي يحشر الناس على قدميه، و العاقب الذي ليس بعده نبيٌّ.

وهذه العلامات إما أن تكون علاماتٍ على قرب الساعة ووقوعها، وإما على حصولها.

فمن النوع الأول: الدجال، ونزول عيسى عليه السلام، ويأجوج ومأجوج، والخسف

ومن الثاني: الدخان، وطلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة، والنار التي تحشر الناس[2].

وهذه العلامات والعلم بها لا ينافي ما سبق من اختصاص الله سبحانه وتعالى بعلم الساعة؛ لأن علم قربها لا يستلزم علم وقت مجيئها معينًا.

وكذلك فإن معرفة هذه العلامات لا تعطي الإنسان علمًا بوقت وقوعها متى يكون؟ فهي تأتي بغتة تفجأ الناس وتبغتهم، وهم عنها غافلون.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر رضي الله عنه، ٥/ ١٢، رقم ٣٦٨٨.

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر ١١/ ٣٥٢-٣٥٣.

قال الله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٧].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها)**[١].

وروى سهل وأنس وأبو هريرة رضي الله عنهم أن الرسول عليه السلام قال: **(بعثت أنا والساعة كهاتين) يشير بإصبعيه)**[٢].

وعن المستورد بن شداد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(بعثت في نفس الساعة فسبقتها، كما سبقت هذه لهذه) لأصبعيه السبابة والوسطى)**[٣].

وعن خالد بن عمير العدوي قال: خطبنا عتبة بن غزوان، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد فإن الدنيا قد آذنت بصرم وولت حذاء، ولم يبق منها إلا صبابةٌ كصبابة الإناء يتصابها صاحبها، وإنكم منتقلون منها إلى دارٍ لا زوال لها، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم»[٤].

٤. إنزال الغيث.

والمفتاح الثاني من مفاتح الغيب بعد علم الساعة هو إنزال الغيث، وهو آية الله في خلقه على إمكانية قيام الساعة حيث يحيي به الأرض بعد موتها.

والله سبحانه وتعالى وحده الذي ينزل الغيث ويختص بالقدرة على إنزاله، ويختص بعلمه علمًا كاملًا شاملًا. فهو ينزله في إبانه من غير تقديم و لا تأخير في بلد لا يتجاوزه به، وبالقدر الذي يريده وتقتضيه حكمته، فهو اختصاص قدرة واختصاص علم.

قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب طلوع الشمس من مغربها، ٨/ ١٠٦، رقم ٦٥٠٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الفتن، باب قرب الساعة، ٤/ ٢٢٧٠، رقم ٢٩٥٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب قول النبي: (بعثت أنا والساعة كهاتين)، ٨/ ١٠٥، رقم ٦٥٠٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الفتن، باب قرب الساعة، ٤/ ٢٢٦٨، رقم ٢٩٥١.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب القدر، باب ما جاء في قول النبي: (بعث أنا والساعة كهاتين)، ٤/ ٤٩٦، ٢٢١٣.
قال الترمذي: «هذا حديث غريب».
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، ص ٣٤٥، رقم ٢٣٣٩.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد، ٤/ ٢٢٧٨، رقم ٢٩٦٧.

﴿٦٨﴾ ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨-٦٩].

وقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠].

وقد تجري بعض المحاولات البشرية، فيما أسموه (المطر الصناعي)، والمقصود منه حتى الآن هو: عصر السحب الممطرة أو القابلة للإمطار، وذلك بتوليد حالات من فوق التشبع داخلها بطرق صناعية، كقذف بلورات من الثلج الجاف مباشرة بواسطة الطائرات أعلى السحب الركامية، لا تلبث أن تسقط إلى المناطق الوسطى من تلك السحب لتبدأ قصة سقوط المطر الصناعي. أو بقذف مسحوق بدلًا من بلورات الثلج، أو حرقه بحيث يكون سحبًا كثيفة، أو برش نقاط من الماء أسفل السحب وأعلاها. ولكلٍ من هذه الطرق ظروفها الخاصة[1].

وهذا لا يعني أن البشر يستطيعون إنزال الغيث، أو أن ذلك بمقدورهم، فالله تعالى وحده هو الذي خلق الأسباب الكونية لإنزال المطر، وجعل تلك الخصائص للسحب وتركيبها بعامة، والسحب الركامية خاصة، التي خصها الله تعالى بنزول البرد ونشوء الرعد والبرق، وكذلك توفير الظروف المناخية لنزول الغيث، والهواء الصاعد المحمل ببخار الماء، كل هذا خلقه الله تعالى وليس بإمكان البشر ذلك.

فكان إنزال الغيث مختصًا بالله تعالى وحده. وليس هنالك عاقل يزعم أن ذلك بمقدوره، وحتى الكفار قديمًا حكى الله تعالى إقرارهم بذلك فقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

ولئن حاول بعض الناس التعرف بالتجارب والمقاييس والعادات قرب نزول المطر، ظنًا لا علمًا يقينيًا، إنهم لا يقدرون على علم ذلك يقينًا؛ إذ إن التنبؤات الجوية كثيرًا ما تخيب، والتجارب كثيرًا ما تختلف، والعادة قد تخرق، والظنون تخطئ.

فلا يستطيع البشر أن يجزموا بشيء في موعد نزول المطر وكميته أو عمومه على الأرض، أو خصوصه لبقعة معينة، أو غير ذلك من الصفات في إنزال المطر. ويبقى العلم اليقيني لله وحده. وشتان بين علم الله المحيط الشامل اليقيني وأوهام البشر وظنونهم!

ولكن إن حجب الله تعالى هذا العلم عن الخلق قبل إعلام الملائكة الموكلة بالمطر، فإنه إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك ومن يشاء الله تعالى من خلقه، فلا

(١) انظر: الله والكون، محمد جمال الدين الفندي، ص١٧٩.

يكون عندئذ بعد هذا الإعلام غيبًا بالنسبة لمن أعلمه الله تعالى به.

ويلاحظ أن الآية الكريمة عن مفاتح الغيب قال الله تعالى فيها: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ فصيغة الآية لا تنفي أن أحدًا غير الله تعالى يعلم إنزاله، بخلاف أول الآية في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الذي يفيد الاختصاص. ولكن جاء الحديث الصحيح وفسر ذلك، حيث أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه الخمس في سورة لقمان بأنها هي مفاتح الغيب التي لا يعلمها إلا هو. والله سبحانه وتعالى أعلم.

ومن هنا جاء التشديد عن النبي صلى الله عليه وسلم على من يزعم معرفة شيء من ذلك لمعرفته بالأنواء، فينسبه إلى منازل القمر مثلًا، ففي حديث زيد بن خالد أنه قال: **(صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماءٍ كانت من الليلة، فلما انصرف النبي صلى الله عليه وسلم أقبل على الناس فقال: (هل تدرون ماذا قال ربكم؟). قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: (قال أصبح من عبادي مؤمنٌ بي وكافرٌ، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمنٌ بي وكافرٌ بالكوكب، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا. فذلك كافرٌ بي مؤمنٌ بالكوكب)**[1].

والخلاصة: أن علم البشر متى يكون نزول المطر هو أمرٌ مستحيل. ولا يرد على ذلك أن بعض الناس يدرك نزول المطر متى انعقدت أسبابه، بحيث يغلب على الظن ذلك، إذا نشأ السحاب الممطر عادة، وهبت الرياح التي يصاحب هبوبها نزول المطر، وتهيأ الجو المشبع بالرطوبة، والذي تعتمد عليه -وعلى غيره من الأسباب الأخرى- الأرصاد الجوية في حدسها وظنونها، وما لم تنعقد هذه الأسباب فلا أحد يعلم متى ينزل المطر.

٥. ما في الأرحام.

والمفتاح الثالث من مفاتح الغيب هو علم الأجنة. فالله سبحانه وتعالى وحده هو الذي يعلم علمًا يقينيًا محيطًا شاملًا بما في الأرحام، في كل لحظة وفي كل طور، فيعلم قبل تلقيح البويضة بالحيوان المنوي، يعلم نوع الجنين الذي يقدر الله تعالى خلقه: هل هو ذكر أو أنثى؟ وهل هو تام الخلقة أم ناقص الخلقة؟ وهل هو سليم من التشوهات أو غير سليم؟ هل هو واحد أو أكثر؟ وما هي طبائع هذا الجنين بعد الولادة؟ إلى ما هنالك من اختلاف في المقادير والصفات والطبائع والأخلاق والشمائل والكسب

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب الاستسقاء، باب قول الله: (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون)، ٢/ ٣٣، رقم ١٠٣٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان كفر من قال: مطرنا بالنوء، ١/ ٨٣، رقم ٧١.

والصنائع، والتقلبات في مقدار العمر والرزق والأوقات والأماكن، وغير ذلك من الأحوال التي لا يحصيها إلا بارئ النسم ومحيي الرمم سبحانه.

ولما كانت للخلق في ذلك -لكثرة الملابسات والمعالجات- ظنون في وجود الحمل أولًا، ثم في كونه ذكرًا أو أنثى ثانيًا، ونحو ذلك بسبب ما أقام الله تعالى من الأمارات الناشئة عن طول التجارب وكثرة الممارسة عبر بالعلم فقال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ أي: من ذكر أو أنثى، حيٍّ أو ميت وغير ذلك، وبصيغة المضارع التي تدل على التجدد وحدوث الفعل شيئًا فشيئًا، ووقتًا بعد وقت[1].

٦. **الكسب بالمستقبل.**

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾، هذا هو المفتاح الرابع، الكسب فيما يستقبل من الزمن، من خيرٍ، أو شرٍ، من شقاء أو سعادة، ومن كسبٍ ماديٍ أو معنويٍ، ومن صداقة أو عداوة، ومن صحة أو مرض، ومن أحوال الناس وتقلباتهم في معاملته لهم ومعاملتهم له، وغير ذلك من الأحوال والكسب بعامة، لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى.

وقد جعل الله كل ذلك غيبًا مغلقًا أمام الإنسان، يتطلع المرء لمعرفة شيء منه، ولكنه لن يستطيع أن يعود من ذلك بشيء - إلا أن يكون ذلك الشيء جملة من الأوهام والظنون، مهما حاول بكل وسيلة، ومهما أوسع الحيلة ليتعرف على ما يتشوق إليه من ذلك الغيب المجهول الذي يحيط به.

يقول الإمام البقاعي رحمه الله: «ولكون الإنسان -مع أنه ألصق الأشياء وألزمه له- لا يعلمه مع إيساعه الحيلة في معرفته، عبر فيه بالدراية؛ لأنها تدل على الحيلة بتصريف الفكر وإجالة الرأي -كما تقدم في سورة يوسف عليه السلام أن مادة (درى) تدور على الدوران، ومن لوازمه إعمال الحيلة وإمعان النظر، فهي أخص من مطلق العلم فقال: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ﴾ أي: من الأنفس البشرية وغيرها ﴿ما﴾ وأكد المعنى بـ﴿ذا﴾ وتجريد الفعل فقال: ﴿مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ أي: في المستقبل من خير أو شرٍ بوجه من الوجوه، وفي نفي علم ذلك من العبد -مع كونه ألصق الأشياء به- دليلٌ ظاهر على نفي علم ما قبله عنه؛ لأنه أخفى منه، وقد تقدم إثبات علمه له سبحانه وتعالى، فصار على طريق الحصر، وعلم أيضًا أنه لا يسند إلى العبد إلا على طريق الكسب؛ لأنه لو كان مخلوقًا له لعلمه قطعًا، فثبت أنه سبحانه وتعالى خالقه، فعلم اختصاصه بعلمه من هذا الوجه أيضًا»[2].

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١٥/ ٢١٧.

(٢) المصدر السابق ١٥/ ٢١٨-٢١٩.

٧. مكان الموت.

وهذا هو المفتاح الخامس من مفاتح الغيب: مكان الموت و نهاية المرحلة في هذه الحياة الدنيا، وهي المصير المحتوم لكل مخلوق، ومع ذلك لا يستطيع الإنسان ولا تستطيع أي نفس كانت أن تدري مكان موتها، هل هو في الأرض التي ولدت فيها أم في غيرها؟ في هذا البلد أو ذاك من بلاد الله الواسعة المترامية الأطراف، وفي أي بقعة أو مكان من هذا البلد أو ذاك؟ و هل يكون ذلك في بر أو بحر أو سهل أو جبل.، إلى غير ذلك مما يقف الإنسان أمامه عاجزًا، إذ لا يعلم ذلك كله إلا الخالق سبحانه الذي أحاط بكل شيء علمًا.

وقد جاء في الحديث: **(إذا أراد الله قبض روح عبدٍ في أرضٍ جعل له فيها -أو قال بها- حاجةً)**[1].

ولما كان علم مكان الموت، لا يعلمه أحد من الناس بنوع حيلة، مع شدة حذره منه وحبه -لو أنفق جميع ما يملكه لكي يعلمه- عبر عنه بما عبر عن الذي قبله، فقال مؤكدًا بإعادة النافي والمسند: ﴿وَمَا تَدْرِي﴾ وأظهر؛ لأنه أظهر وأليق بالتعميم فقال: ﴿نَفْسٌ﴾ أي: من البشر وغيره ﴿بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾، ولم يقل: بأي وقت؛ لعدم القدرة على الانفكاك عن الوقت، مع القدرة على الانفكاك عن مكان معين، وإحاطة العلم بكراهة كل أحد للموت، فكان ذلك أدل دليل على جهله بموضع موته؛ إذ لو علم به لبعد عنه ولم يقرب منه[2].

الحكمة في أن للغيب مفاتح:

وقد تلمس بعض العلماء الحكمة فيما جاء في الآية الكريمة وفي الحديث الشريف من التعبير عن هذه الغيوب وأصولها بـ (المفاتح)، فذكر الشيخ ابن أبي جمرة الأندلسي[3] أن الحكمة في أن للغيب مفاتح تظهر في أمور، منها:

- تقريب الأمر على المخاطب؛ لأن أمور الغيب لا يحصيها أحدٌ إلا عالمها، وكل شيء حيل بينك وبينه فهو غيب. وأقرب الأشياء في ذلك هي الأبواب، والأبواب أقل ما يحبسها عن الفتح وأيسرها المفاتيح، فإذا كان أيسر الأشياء التي يعرف بها الغيب لا يعرف لها أحدٌ موضعًا، فكيف يقدر أن يعرف ما هو أكبر ومن ذلك؟ هذا محال. وهذا

وانظر فتح الباري، ابن حجر ١/ ١٢٤، روح المعاني، الألوسي ٢١/ ١١.

(١) أخرجه أحمد في المسند، ٣/ ٤٢٩، والبخاري في الأدب المفرد ص ٣٧٠. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ١١٨، رقم ٣١١.

(٢) نظم الدرر، البقاعي ١٥/ ٢١٩.

(٣) في كتابه: بهجة النفوس وتحليها بمعرفة ما لها وما عليها ٤/ ٢٧١.

من أبلغ البيان وأخصره.

❁ أنه أراد بالغيب: الغيب الذي لا يعلمه أحدٌ حقيقة؛ لأن الغيوب على ما هي عليه، وإن كانت لبعض الغيوب أسبابًا قد يستدل في بعض المراد بها عليه أن بذلك ليس حقيقيًا في علم تلك الغيوب، وأما حقيقتها فلا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى. ويشهد لهذا التوجيه: قوله صلى الله عليه وسلم كنايه عن الله سبحانه: (**أصبح من عبادي مؤمنٌ بي وكافرٌ، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمنٌ بي وكافرٌ بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا. فذلك كافرٌ بي مؤمنٌ بالكوكب**)[1].

حكمة حصر الغيب بهذه المفاتح:

وأمور الغيب ليست محصورة في هذه الخمس التي جاءت في سورة لقمان وفي حديث مفاتيح الغيب -الذي سبق- فهي لا يحصيها إلا الله سبحانه وتعالى الذي يعلمها كلها، بكلياتها وجزئياتها، وظواهرها وبواطنها. فهي ﴿مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾، لا على معنى أن الغيب محصور فيهن -كما زعمه بعضهم- فقد صرح القرآن الكريم بغيرهن في مواطن كثيرة؛ من ذلك: معرفة حقيقة الروح، و تفصيل بدء الخلق، و تفاصيل النشأة الآخرة، و جنود الله، إلى غير ذلك.

وإنما اقتصر في الحديث على الأمور المجموعة في آية لقمان المذكورة؛ لأن النفوس كلها تتشوق لمعرفتها، ولأنها وردت مجموعة في سؤال الناس للنبي صلى الله عليه وسلم على ما روي في سبب النزول، وقد تقرر أن العدد لا مفهوم مخالفة له، بل يثبت مضمونه ولا ينفي ما زاد عنه[2].

ولتقريب هذا إلى الأذهان جاء التعبير بـ﴿مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾؛ إذ أن أقرب الأشياء إلى الاطلاع على ما غاب عن الإنسان هو الأبواب، والمفاتح أيسر الأشياء لفتح الباب، فإذا كان أيسر الأشياء لا يعرف مكانها فما فوقها أحرى أن لا يعرف ولا يعلم علمًا حقيقيًا. وإن كان لبعض الغيوب أسبابًا قد يستدل بها عليها، لكن ليس ذلك حقيقيًا، ولما كان جميع ما في الوجود محصورًا في علمه شبهه بالمخازن، واستعار المفتاح لأبواب تلك المخازن.

وتلمس العلامة ابن أبي جمرة الأندلسي رحمه الله الحكمة في حصر أمور الغيب في هذه الخمسة، فوجدها في الإشارة إلى حصر العوالم في هذه الخمس من المفاتح:

فالمفتاح الأول: ﴿عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ فيه إشارة إلى علوم الآخرة كلها، ويوم القيامة

(١) سبق تخريجه قريبًا.

(٢) انظر: المختار من كنوز السنة، محمد عبدالله دراز، ص ٢٩٧.

أولها، وهو مفتاح علومها. وإذا انتفى علم الأقرب انتفى ما بعده من باب أولى.

والمفتاح الثاني: (إنزال الغيث) إشارة إلى علوم العالم العلوي، وخص منه المطر مع أن له أسبابًا قد تدل بمجرى العادة وسنة الله الكونية على وقوعه وإنزاله، لكنه من غير تحقيق وعلم يقيني.

والمفتاح الثالث: (علم ما في الأرحام) إشارة إلى ما يزيد في النفس وينقص، وخص الرحم بالذكر لكون الأكثر يعرفونها بالعادة، ومع ذلك نفى أن يعرف أحد حقيقتها، فغيرها منفيٌ بطريق أولى.

والمفتاح الرابع: (علم ما في غد) إشارة إلى أنواع الزمان وما فيها من الحوادث والكسب، وعبر بلفظ: (غد) لتكون حقيقته أقرب الأزمنة، وإذا كان -مع قربه- لا يعلم حقيقته وحقيقة ما يقع فيه -مع إمكان الأمارة والعلامة الدالة عليه-، فما بعده أولى أنه لا يعرف.

والمفتاح الخامس: (علم مكان الموت) إشارة إلى أمور العالم السفلي، مع أن عادة أكثر الناس أن يموت ببلده، ولكن ليس ذلك حقيقة، بل لو مات في بلده، لا يعلم في أي بقعة يدفن فيها، ولو كان هناك مقبرة لأسلافه الماضين، بل ولو كان له قبر أعده لنفسه[1].

وقال السيد محمد رشيد رضا: «العوالم ثلاثة:

الأول: القريب الداني الذي نقيم فيه قبل الموت.

الثاني: الذي نقيم فيه بعد الموت أبدًا إلى غير نهاية.

الثالث: الوسط بينهما، وهو ما نقيم فيه بين العالمين حتى يتم جمعنا بانتهاء الدنيا، ونفد على الله جميعًا.

فالثاني والثالث: من الغيب الذي ليس مشهودًا لنا، ولا يحصل فيه زيادة يبرزها الله تعالى من العدم، كالأحجار والمعادن ونحوها من الموجودات، التي وجدت في الكون تدريجيًا، أو دفعة واحدة، ومنه ما هو غيب، وهو ما يتجدد بصورة مخصوصة لم تكن مشهودة، وهو النبات ومفتحة الغيث، والحيوان ومفتحة الأرحام غالبًا، أو عبر بها عنه، وكسب الحيوان وعمله وهو مفتح وخزانة من خزائن الغيب»[2].

(١) بهجة النفوس شرح مختصر البخاري، ابن أبي جمرة ٤/ ٢٧١.

(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٤٦٨-٤٦٩.

ادعاء علم الغيب

استأثر الله سبحانه وتعالى بعلم الغيب، واختص به نفسه، فليس لأحد من الخلق أن يزعم أنه قادر على معرفة ما استأثر الله تعالى به، فقد قال الله عز وجل: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ﴾ [النمل: ٦٥].

ومفاتح الغيب هذه هي التي أشار الله تعالى إليها وفصلها في سورة لقمان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

ولم يطلع الله تعالى أحدًا على الغيب إلا من اختاره من رسله لإطلاعه على بعض أنواع الغيوب، مما شاءت حكمة الله تعالى أن يعلمه لهم في مرحلة من مراحل الغيب -على ما سبق بيانه في أنواع الغيب- فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقال أيضًا: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٧].

وما استأثر الله تعالى بعلمه، فلا يعلمه أحد من الخلق حتى الرسل عليهم الصلاة والسلام؛ ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها: من زعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبر بما يكون في غدٍ فقد أعظم على الله الفرية؛ والله تعالى يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ﴾[1].

ولذلك ينبغي أن نتعرف على حكم من يدعي شيئًا من علم الغيب الذي استأثر الله تعالى به، أو لم يستأثر به، ولكن لم يهيئ للخلق أسباب المعرفة له. ويدخل في ذلك حكم التنجيم والكهانة والعرافة.

أولًا: حكم ادعاء علم الغيب والاستسقاء بالنجوم والكواكب:

وفيما يلي إشارة إلى حكم ذلك كله، كما ذكره علماء الإسلام في كتب التفسير، وكتب التوحيد، وكتب الفقه، ونجتزئ ببعض النصوص الدالة على ذلك من المذاهب الفقهية المختلفة. وبالله التوفيق:

يقول ابن أبي العز الحنفي: «ومن ادعى علم الغيب كان من الكافرين. قال الله

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معنى قول الله عز وجل: (ولقد رآه نزلة أخرى)، ١/ ١٥٩، رقم ١٧٧.

تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٧].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

ولا يلزم من خفاء حكمة الله علينا عدمها، ولا من جهلنا انتفاء حكمته. ألا ترى أن خفاء حكمة الله علينا في خلق الحيات والعقارب والفأر والحشرات، التي لا يعلم منها إلا المضرة -لم ينف أن يكون الله تعالى خالقًا لها-، ولا يلزم أن لا يكون فيها حكمة خفيت علينا؛ لأن عدم العلم لا يكون علمًا بالمعدوم»[(١)].

ويقول ابن عابدين الحنفي: «إن دعوى علم الغيب معارضةٌ لنص القرآن الكريم، فيكفر بها، إلا إذا أسند ذلك صراحةً أو دلالةً إلى سببٍ من الله تعالى، كوحيٍ أو إلهام، وكذا لو أسنده إلى أمارة عاديةٍ بجعل الله تعالى. وقال أيضًا: وأما ما وقع لبعض الخواص كالأنبياء والأولياء بالوحي والإلهام فهو بإعلام من الله تعالى، فليس مما نحن فيه»[(٢)].

(١) شرح العقيدة الطحاوية ١/ ٣٤٣.
(٢) حاشية ابن عابدين ٤/ ٢٤٢-٢٤٣.

ويقول القرطبي المالكي: «قال علماؤنا: أضاف سبحانه علم الغيب إلى نفسه في غير ما آيةٍ من كتابه إلا من اصطفى من عباده، فمن قال: إنه ينزل الغيث غدًا وجزم فهو كافر، أخبر عنه بأمارة ادعاها أم لا. وكذلك من قال: إنه يعلم ما في الرحم فهو كافر، فإن لم يجزم وقال: إن النوء ينزل الله به الماء عادة، وأنه سبب الماء عادة، وأنه سبب الماء على ما قدره وسبق في علمه لم يكفر، إلا أنه يستحب له ألا يتكلم به، فإن فيه تشبيهًا بكلمة أهل الكفر، وجهلًا بلطيف حكمته؛ لأنه ينزل متى شاء، مرةً بنوء كذا، ومرةً دون النوء. قال الله تعالى في الحديث القدسي: (أصبح من عبادي مؤمنٌ بي وكافرٌ)»[(٣)].

وقال أيضًا: «فلا مطمع لأحدٍ في علم شيء من الأمور الخمس، ولا طريق لعلم شيء من ذلك إلا أن يعلم الله تعالى بذلك -أو بشيء منه- أحدًا ممن شاءه، فمن ادعى علم شيء من هذه الأمور، كان في دعواه كاذبًا، إلا أن يسند ذلك إلى رسولٍ بطريقةٍ تفيد العلم القطعي، ووجود ذلك متعذر بل ممتنعٌ. وأما ظن الغيب: فلم يتعرض شيء من الشرع لنفيه ولا إثباته؛ فقد يجوز أن يظن المنجم -أو صاحب خط الرمل، أو نحو هذا- شيئًا مما يقع في المستقبل، فيقع على ما ظنه، فيكون ذلك ظنًا صادقًا، إذا كان

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٧/ ٢.

عن موجبٍ عاديٍ يقتضي ذلك الظن، وليس بعلم، فتفهم هذا؛ فإنه موضعٌ غلط بسببه رجال، وأكلت به أموال»[1].

وقال أبو بكرٍ ابن العربي المالكي: «مقامات الغيب الخمسة التي لا يعلمها إلا الله لا أمارة عليها، ولا علامة عليها، إلا ما أخبر به الصادق المجتبى لاطلاع الغيب من أمارات الساعة، والأربعة سواها لا أمارة عليها، فكل من قال: إنه ينزل الغيث غدًا فهو كافرٌ، أخبر عنه بأماراتٍ ادعاها، أو بقولٍ مطلق.

ومن قال: إنه يعلم ما في الرحم فهو كافر، فأما الأمارة على هذا فتختلف، فمنها كفرٌ، ومنها تجربةٌ. والتجربة منها أن يقول الطبيب: إذا كان الثدي الأيمن مسود الحلمة فهو ذكر، وإن كان ذلك في الثدي الأيسر فهو أنثى، وإن كانت المرأة تجد الجنب الأيمن أثقل فهو ذكرٌ، وإن وجدت الجنب الأشأم (الأيسر) أثقل فالولد أنثى، وادعى ذلك عادة لا واجبًا في الخلقة لم نكفره، ولم نفسقه.

فأما من ادعى علم الكسب في مستقبل العمر فهو كافر، أو أخبر عن الكوائن الجملية أو المفصلة فيما يكون قبل أن يكون، فلا رية في كفره أيضًا.

فأما من أخبر عن كسوف الشمس والقمر، فقد قال علماؤنا: يؤدب ويسجن ولا يكفر. أما عدم تكفيره: فلأن جماعة قالوا: إنه أمر يدرك بالحساب، وتقدير المنازل، حسبما أخبر الله سبحانه في قوله جل وعلا: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [يس:٣٩].

فلحسابهم له، وإخبارهم عنه، وصدقهم فيه، توقفت علماؤنا عن الحكم بتكفيرهم.

وأما أدبهم فلأنهم يدخلون الشك على العامة في تعليق العلم بالغيب المستأنف، ولا يدرون قدر الفرق بين هذا وغيره، فتشوش عقائدهم في الدين، وتتزلزل قواعدهم في اليقين فأدبوا حتى يسروا ذلك إذا عرفوه ولا يعلنوا به»[2].

وقال الوزير عون الدين بن هبيرة: «ما يدعيه المنجمون من أنهم يعرفون الكسوف قبل كونه من طريق، فلا يختص بهم دون غيرهم ممن يعرف الحساب، بل هو مما إذا حسبه الحاسب عرفه، وليس مما يدل على أنهم يتخصصون فيه، مما يجعلونه حجة في دعواهم علم الغيب مما تفرد الله سبحانه بعلمه، فإنه لا دلالة لهم على ذلك، ولا فيما تعلقوا به من هذا الاحتجاج على ما أرهجوا به»[3].

وقال الشيخ سليمان بن عبد الله آل

(١) نقله عنه ابن حجر العسقلاني في فتح الباري ١/ ١٢٣-١٢٤.

(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ٢/ ٧٣٨-٧٣٩.

(٣) الفروع، ابن مفلح ٣/ ٢٢٤.

الشيخ: «الاستسقاء بالنجوم نوعان:

أحدهما: أن يعتقد أن المنزل للمطر هو النجم، فهذا كفرٌ ظاهر؛ إذ لا خالق إلا الله، وما كان المشركون هكذا، بل كانوا يعلمون أن الله هو المنزل للمطر، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

الثاني: أن ينسب إنزال المطر إلى النجم، مع اعتقاده أن الله تعالى هو الفاعل لذلك المنزل له، إلا أنه سبحانه وتعالى أجرى العادة بوجود المطر عند ظهور النجم، فحكى ابن مفلح خلافًا في مذهب أحمد في تحريمه وكراهته، وصرح أصحاب الشافعي بجوازه.

والصحيح أنه محرم؛ لأنه من الشرك الخفي، وهو الذي أراده النبي صلى الله عليه وسلم وأخبر أنه من أمر الجاهلية، ونفاه، وأبطله بقوله صلى الله عليه وسلم: (**أربعٌ في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة**)[1].

وهو الذي كان يزعم المشركون، ولم يزل موجودًا في هذه الأمة إلى اليوم»[2].

وعندما ينسب المطر إلى الأنواء ومنازل القمر وغير ذلك، يدعي بهذا علمًا للغيب؛ إذ إنه عندما يرى هذه المظاهر والأسباب يدعي نزول المطر، وقد سبق أن هذا مما اختص الله تعالى به، وإن كان قد يعلمه الإنسان ظنًا في مرحلة انعقاد أسبابه، كما سبق بيانه في مفاتح علم الغيب، والله سبحانه أعلم.

ثانيًا: الكهانة وصور ادعاء علم الغيب:

ومما يدخل في باب ادعاء علم الغيب: العرافة، والتنجيم، والكهانة، والطرق بالحصى، وقد يطلق عليها جميعها اسم الكهانة[3].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[4]: «وممن يدخل في ذم السحرة: الكهان والعرافون والمنجمون والذين يخطون في الرمل،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب التشديد في النياحة، ٢/ ٦٤٤، رقم ٩٣٤.

(٢) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، سليمان بن عبد الله آل الشيخ، ص ٤٥٤ - ٤٥٥.

(٣) قال المناوي: «العراف الكاهن، لكن العراف يختص بالأحوال المستقبلية، والكاهن يخبر بالماضي». وقيل غير ذلك. والمنجم الذي يترصد النجوم ثم استعمل بمعنى الذي يحسب سير النجوم وعلاقتها بالأفعال البشرية. وفي الفرق بين هذه الألفاظ انظر: الكليات، الكفوي: ٤/ ١٢٩، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص٥٠٩، المفردات، الراغب، ص ٧٢٨، عمدة الحفاظ للسمين الحلبي، ص ٥٠٤، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي: ٤/ ٣٩٨.

(٤) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ص ٤٢.

وكل هؤلاء يدعون علم الغيب، وهم كفرة خارجون عن الإسلام بادعائهم الغيب. قال الله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

ومن صدقهم في دعواهم فهو كافرٌ بالله مشركٌ. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(من أتى حائضًا، أو امرأةً في دبرها، أو كاهنًا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل الله على محمدٍ)**[1].

وسنفرد أهم هذه الصور بكلمة موجزة، نبين من خلالها حكم من يدعي شيئًا من ذلك أو يفعله أو يصدقه.

الكهانة:

قال ابن سيده: «كهن يكهن ويكهن، وتكهن يتكهن تكهنًا و تكهينًا: قضى له بالغيب. ورجلٌ كاهنٌ من قوم كهنةٍ وكهانٍ. وكهن كهانةً صار كاهنًا، وحرفته الكهانة»[2].

والمراد من علم الكهانة مناسبة الأرواح البشرية مع الأرواح المجردة من الجن والشياطين، والاستعلام بهم عن الأحوال الجزئية الحادثة في عالم الكون المخصوصة بالمستقبل. فالكهانة هي: ادعاء علم الغيب أو القضاء به، كالإخبار بما سيقع في الأرض مع الاستناد إلى سبب. والأصل فيه: استراق الجني السمع من كلام الملائكة، فيلقيه في أذن الكاهن.

والكاهن لفظ يطلق على العراف، والذي يضرب بالحصى، والمنجم، ويطلق على من يقوم بأمر آخرٍ، ويسعى في قضاء حوائجه. والعرب تسمي كل من آذن بشيء قبل وقوعه كاهنًا. فهو يخبر عما يكون في المستقبل ويدعي معرفة الأسرار ومطالعة علم الغيب[3].

قال الخطابي[4]: «الكهنة قوم لهم أذهان حادة ونفوس شريرة وطباع نارية، فألفتهم الشياطين؛ لما بينهم من التناسب في هذه الأمور، وساعدتهم بكل ما تصل قدرتهم إليه. فالكاهن هو الذي يدعي مطالعة علم الغيب، ويخبر الناس عن الكوائن».

وكانت الكهانة في الجاهلية فاشية،

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند، ٢/ ٤٢٩، ٤٧٦، وأبو داود في سننه، كتاب الطب، باب الكاهن، ٥/ ٣٧٠، والترمذي في سننه، أبواب الطهارة، باب ما جاء في كراهية اتيان الحائض، ١/ ٤١٨-٤١٩.
قال الترمذي: «لا نعرف هذا حديث حكيم الأثرم عن ابن تميمة الهجمي عن أبي هريرة وضعف محمدٌ البخاري، هذا الحديث قبل إسناده».
وصححه الألباني في إرواء الغليل، ٧/ ٦٨، رقم ٢٠٠٦.

(٢) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٤/ ١٤٣، لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٣٦٢-٣٦٣.

(٣) انظر: أبجد العلوم، محمد صديق خان ٢/ ٤٥٣، مفتاح السعادة، طاش كبرى زاده ١/ ٣٤٠-٣٤١.

(٤) كما نقله ابن حجر في الفتح ١٠/ ٢١٧.

خصوصًا في العرب؛ لانقطاع النبوة فيهم، وهي على أربعة أصناف:

الأول: ما يتلقونه من الجن، فإن الجن كانوا يصعدون إلى جهة السماء، فيركب بعضهم بعضًا إلى أن يدنو الأعلى بحيث يسمع الكلام، فيلقيه إلى الذي يليه، إلى أن يتلقاه من يلقيه في أذن الكاهن فيزيد فيه، فلما جاء الإسلام، ونزل القرآن، حرست السماء من الشياطين وأرسلت عليهم الشُّهب، فبقي من استراقهم ما يتخطفه الأعلى، فيلقيه إلى الأسفل قبل أن يصيبه الشهاب، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠].

وكانت إصابة الكهان قبل الإسلام كثيرة جدًا، كما جاء في أخبار شق وسطيح ونحوهما، وأما في الإسلام فقد ندر ذلك جدًا حتى كاد يضمحل، ولله الحمد.

والثاني: ما يخبر الجني به من يواليه بما غاب عن غيره، مما لا يطلع عليه الإنسان غالبًا، أو يطلع عليه من قرب منه لا من بعد عنه.

والثالث: ما يستند إلى ظنٍ وتخمين وحدس، وهذا قد يجعل الله فيه لبعض الناس قوة، مع كثرة الكذب فيه. وإذا كان كذلك فسؤالهم عن غيب ليخبروا عنه حرامٌ، وما يأخذون على ذلك حرامٌ، ولا خلاف فيه؛ لأنه حلوان الكاهن المنهي عنه.

والرابع: ما يستند إلى التجربة والعادة، فيستدل على الحادث بما وقع قبل ذلك. ومن هذا القسم الأخير ما يضاهي السحر، وقد يعتضد بعضهم في ذلك بالزجر والطرق والنجوم، وكل ذلك مذموم شرعًا[١].

ونقل القرطبي عن علماء المالكية أنه «يجب على من ولي الحسبة أن يقيم هؤلاء الكهنة من الأسواق، وينكر عليهم أشد النكير، ولا يدع أحدًا يأتيهم لذلك، وإن ظهر صدق بعضهم في بعض الأمور، فليس ذلك بالذي يخرجهم عن الكهانة، فإن تلك الكلمة إما خطفة جني، أو موافقة قدر ليغتر به بعض الجهال، ولقد انخدع كثير من المنتسبين للفقه والدين، فجاءوا إلى هؤلاء الكهنة والعرافين فبهرجوا عليهم بالمحال، واستخرجوا منهم الأموال، فحصلوا من أقوالهم على السراب والآل، ومن أديانهم على الفساد، والضلال»[٢].

وورد في ذم الكهانة ما أخرجه أصحاب السنن وصححه الحاكم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(من أتى حائضًا، أو امرأةً في دبرها، أو كاهنًا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل الله على محمدٍ)**[٣].

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ١٨/ ١٠٦.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٣-٤.
(٣) سبق تخريجه قريبًا.

وله شاهد من حديث جابر وعمران بن حصين، أخرجهما البزار بسندين جيدين، ولفظهما: **(من أتى كاهنًا فصدقه)**[1].

وأخرجه مسلم من حديث امرأةٍ من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم -ومن الرواة من سماها حفصة- بلفظ: **(من أتى عرافًا)**[2].

وأخرجه أبو يعلى من حديث ابن مسعود بسند جيد، لكن لم يصرح برفعه، ومثله لا يقال بالرأي، ولفظه: **(من أتى عرافًا أو ساحرًا أو كاهنًا)**[3].

واتفقت ألفاظهم على الوعيد بلفظ حديث أبي هريرة، إلا حديث مسلم فقال فيه: **(لم يقبل لهما صلاة أربعين ليلة)**.

ووقع عند الطبراني من حديث أنس بسند لين مرفوعًا بلفظ: **(من أتى كاهنًا فصدقه بما يقول، فقد برئ مما نزل على محمدٍ، ومن أتاه غير مصدقٍ له لم تقبل صلاته أربعين يومًا)**[4].

والأحاديث الأول مع صحتها وكثرتها، أولى من هذا. والوعيد جاء تارة بعدم قبول الصلاة وتارة بالتكفير، فيحمل على حالين من الآتي[5].

فما أعظم ضلال أولئك الذين يدعون معرفة الغيب بالكهانة! وما أشدَّ عقوبة أولئك الذين يأتونهم ويصدقونهم فيما يزعمون، حتى إن الشكوى ارتفعت على ألسنة كثير من العلماء في قرون سلفت، عم فيها ذلك الضلال.

فقال القرطبي رحمه الله : «وقد انقلبت الأحوال في هذه الأزمان -زمان القرطبي- بإتيان المنجمين والكهان لاسيما بالديار المصرية، فقد شاع في رؤسائهم وأتباعهم وأمرائهم اتخاذ المنجمين، بل ولقد انخدع كثير من المنتسبين للفقه والدين فجاءوا إلى هؤلاء الكهنة والعرافين، فبهرجوا عليهم بالمحال، واستخرجوا منهم الأموال فحصلوا من أقوالهم على السراب والآل، ومن أديانهم على الفساد والضلال. وكل ذلك من الكبائر؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: **(لم تقبل له صلاة أربعين ليلة)**

---

(١) أخرجه البزار في مسنده، ٥/ ٢٥٦و٣١٥، و١٦/ ٢٩٤.
قال الهيثمي في المجمع ٥/ ١١٧: «رجاله رجال الصحيح خلا عقبة ابن سنان، وهو ضعيف».

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان، ٤/ ١٧٥١، رقم ٢٢٣٠.

(٣) أخرجه أبو يعلى في المسند، رقم ٥٤٠٨.

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، ٧/ ٣٤٧، رقم ٦٦٦٦، والبزار في مسنده، ٥/ ٢٥٦.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/ ١١٨: رجال الكبير والبزار ثقات.

(٥) فتح الباري، ابن حجر ١٠/ ٢١٧.
وانظر: مرقاة المفاتيح، ملا علي القاري ٩/ ١٦-١٧.

فكيف بمن اتخذهم وأنفق عليهم معتمدًا على أقوالهم؟»[1].

روى مسلم رحمه الله عن عائشة رضي الله عنها قالت: **(سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أناس عن الكهان؟ فقال: (إنهم ليسوا بشيء) فقالوا يا رسول الله، إنهم يحدثونا أحيانًا بشيء فيكون حقًا! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرها[2] في أذن وليه قر الدجاجة، فيخلطون معها مائة كذبة)**[3].

وأخرجه البخاري أيضًا من حديث أبي الأسود محمد بن عبد الرحمن، عن عروة، عن عائشة أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **(إن الملائكة تنزل في العنان، وهو السحاب - فتذكر الأمر قضي في السماء فتسترق الشياطين السمع فتسمعه فتوحيه إلى الكهان، فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم)**[4].

العرافة:

هي معرفة الاستدلال ببعض الحوادث الخالية على الحوادث الآتية بالمناسبة أو المشابهة الخفية التي تكون بينهما، أو الاختلاط أو الارتباط، على أن يكونا معلولي أمر واحد، أو يكون ما في الحال علة لما في الاستقبال. وشرط كون الارتباط المذكور خفيًا أن لا يطلع عليه إلا الأفراد، وذلك إما بالتجارب أو بالحالة المودعة في أنفسهم عند الفطرة[5].

والعراف هو الذي يزعم أنه يعرف الأمور الغيبية بمقدمات وأسباب قولية أو فعلية يستدل بها على مواقعها، كالشيء يسرق، فيعرف المظنون به السرقة، وتتهم المرأة بالزنا فيعرف من صاحبها[6].

وقال ابن تيمية: «العراف اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم، كالحازي الذي يدعي علم الغيب أو يدعي الكشف». وقال أيضًا: «والمنجم يدخل في اسم الكاهن عند الخطابي وغيره من العلماء»، وعند آخرين: «هو من جنس الكاهن وأسوأ حالًا منه، فيلحق به من جهة المعنى». وقال الإمام أحمد: «العراف طرف من السحر، والساحر أخبث»[7].

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٣.
(٢) القر: ترديد الكلام في أذن المخاطب حتى يفهمه
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان، ٤/ ١٧٥٠، رقم ٢٢٢٨.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، ٤/ ١١١، رقم ٣٢١٠.
(٥) انظر: أبجد العلوم، صديق خان ٢/ ٣٧٩، ومفتاح السعادة، طاشكبري زاده ١/ ٣٣٢.
(٦) معالم السنن، لخطابي، بهامش مختصر سنن أبي داود للمنذري ٥/ ٣٧٠.
(٧) انظر: تيسير العزيز الحميد ص ٤١٢.

وقال ابن الأثير: «العراف: المنجم أو الحازي الذي يدعي علم الغيب وقد استأثر الله تعالى به»[1].

وقال ابن القيم: «من اشتهر بإحسان الزجر عندهم سموه عائفًا وعرافًا»[2].

والمقصود من هذا: معرفة أن من يدعي علم شيء من المغيبات، فهو إما داخل في اسم الكاهن، وإما مشارك له في المعنى فيلحق به، وذلك أن إصابة المخبر ببعض الأمور الغائبة في بعض الأحيان يكون بالكشف، ومنه ما هو من الشياطين، ويكون بالفأل، والزجر والطير، والضرب بالحصى، والخط في الأرض، والتنجيم، والكهانة والسحر، ونحو هذا من علوم الجاهلية. ونعني بالجاهلية: كل من ليس من أتباع الرسل، كالفلاسفة والكهان والمنجمين، وجاهلية العرب الذين كانوا قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، فإن هذه من علوم قوم ليس لهم علم بما جاءت به الرسل عليهم السلام.

وكل هذه الأمور يسمى صاحبها كاهنًا وعرافًا، فمن أتاهم فصدقهم بما يقولون لحقه الوعيد.

وقد ورث هذه العلوم عنهم أقوام، فادعوا بها علم الغيب الذي استأثر الله تعالى بعلمه، وادعوا أنهم أولياء، وأن ذلك كرامة، ولا ريب أن من ادعى الولاية، واستدل عليها بإخباره ببعض المغيبات، فهو من أولياء الشيطان، لا من أولياء الرحمن.

إذ الكرامة أمر يجريه الله على يد عبده المؤمن المتقي، إما بدعاء أو أعمال صالحة لا صنع للولي فيها، ولا قدره له عليها، بخلاف من يدعي أنه ولي لله، ويقول للناس: اعلموا أني أعلم المغيبات، فإن مثل هذه الأمور قد تحصل بما ذكر-آنفًا- من الأسباب، وإن كانت أسبابًا محرمة كاذبة في الغالب.

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في وصف الكهان: «فيكذبون معها مائة كذبةٍ» فبين أنهم يصدقون مرة ويكذبون مائة. وهكذا حال من سلك سبيل الكهان ممن يدعي الولاية والعلم بما في ضمائر الناس، مع أن نفس دعواه دليل على كذبه؛ لأن في دعواه الولاية تزكية النفس المنهي عنها بقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٣].

وليس هذا من شان الأولياء، بل شأنهم الإزراء على نفوسهم وعيبهم لها، وخوفهم من ربهم.

فكيف يأتون الناس ويقولون: اعرفوا أنا أولياء، وأنا نعلم الغيب. وفي ضمن ذلك طلب المنزلة في قلوب الخلق، واقتناص

(١) النهاية، ابن الأثير ٣/ ٢١٨.
(٢) مفتاح دار السعادة، ابن القيم ٢/ ٢٢٩.

الدنيا بهذه الأمور، وحسبك بحال الصحابة والتابعين، وهم سادات الأولياء، أفكان عندهم من هذه الدعاوى والشطحات شيء؟

لا والله، بل كان أحدهم لا يملك نفسه من البكاء إذا قرأ القرآن كالصديق، وكان عمر يسمع نشيجه من وراء الصفوف يبكي في صلاته، وكان يمر بالآية في ورده بالليل فيمرض منها ليالٍ يعوده الناس، وكان تميم الداري يتقلب في فراشه، لا يستطيع النوم إلا قليلًا، خوفًا من النار، ثم يقوم إلى صلاته.

ويكفيك في صفات الأولياء: ما ذكر الله تعالى من صفاتهم في سورة الرعد، والمؤمنين، والفرقان، والذاريات والطور، فالمتصفون بتلك الصفات هم الأولياء الأصفياء، لا أهل الدعوى والكذب، ومنازعة رب العالمين فيما اختص به من الكبرياء والعظمة، وعلم الغيب، بل مجرد دعواه علم الغيب كفر، فكيف يكون المدعي لذلك وليا لله؟

ولقد عظم الضرر، واشتد الخطب بهؤلاء المفترين، الذين ورثوا هذه العلوم عن المشركين، ولبسوا بها على خفافيش البصائر. نسأل الله السلامة والعافية في الدنيا والآخرة[1].

التنجيم:

وقد يزعم بعض الناس أن هناك مدركًا من مدارك علم الغيب يلجئون إليه للتعرف على ما سيقع مستقبلًا، وهو التنجيم. وهو علم يعرف به الاستدلال بالتشكلات الفلكية على الحوادث السفلية[2].

والمنجمون هم القائلون بالدلالات النجومية ومقتضى أوضاعها في الفلك، وآثارها في العناصر، وما يحصل من الامتزاج بين طباعها بالتناظر، ويتأدى من ذلك المزاج إلى الهواء، وهؤلاء المنجمون ليسوا من الغيب في شيء، إنما هي ظنون حدسية وتخمينات مبنية على التأثير والنجومية، وحصول المزاج منه للهواء، مع مزيد حدس، يقف به الناظر على تفصيل في الشخصيات في العالم، وذلك كله باطل[3].

حذر منه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: **(من اقتبس علمًا من النجوم اقتبس شعبةً من السحر زاد ما زاد)**[4].

---

(١) تيسير العزيز الحميد، سليمان بن عبد الله، ص ٤١٢-٤١٤.

(٢) انظر: كشف الظنون، حاجي خليفة ٢/ ١٩٣-١٩٤، أبجد العلوم صديق خان ٢/ ٥٥١-٥٥٩.

(٣) انظر: مقدمة ابن خلدون ١/ ١٩٥. وقد رد عليهم شيخ الإسلام ابن تيمية وبين خطأهم، كما في مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٥/ ١٧٢-١٧٣.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطب، باب في النجوم ٥/ ٣٧١، وابن ماجه في سننه، كتاب الأدب، باب تعلم النجوم ٢/ ١٢٢٨. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٠٤٩، رقم ٦٠٧٤.

قال الإمام الخطابي: «علم النجوم المنهي عنه: هو ما يدعيه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التي لم تقع، وستقع في المستقبل، كإخبارهم بأوقات هبوب الرياح، ومجيء المطر، وظهور الحر والبرد، وتغير الأسعار، وما كان في معانيها من الأمور، يزعمون أنهم يدركون معرفتها بسير الكواكب في مجاريها، وباجتماعها واقترانها، ويدعون لها تأثيرًا في السفليات، وأنها تتصرف على أحكامها، وتجري على قضايا موجباتها. وهذا منهم تحكم على الغيب وتعاطٍ لعلمٍ استأثر الله سبحانه به، لا يعلم الغيب أحد سواه.

فأما علم النجوم الذي يدرك من طريق المشاهدة والحس، كالذي يعرف به الزوال، ويعلم به جهة القبلة، فهو غير داخل فيما نهي عنه. وذلك: أن معرفة رصد الظل ليس شيئًا بأكثر من أن الظل ما دام متناقصًا، فالشمس بعد صاعدةٌ نحو وسط السماء في الأفق الشرقي، وإذا أخذ في الزيادة فالشمس هابطة من وسط السماء نحو الأفق الغربي.

وهذا علم يصح دركه من جهة المشاهدة، إلا أن أهل هذه الصناعة قد دبروه، بما اتخذوا له من الآلة التي يستغني الناظر فيها عن مراعاة مدته ومراصده.

وأما ما يستدل به من جهة النجوم على جهة القبلة: فإنما هي كواكب أرصدها أهل الخبرة بها من الأئمة الذين لا نشك في عنايتهم بأمر الدين ومعرفتهم بها، وصدقهم فيما أخبروا به عنها. مثل أن يشاهدوها بحضرة الكعبة، ويشاهدوها في حال الغيبة عنها، فكان إدراكهم: الدلالة عنها بالمعاينة، وإدراكنا لذلك بقبولنا لخبرهم؛ إذ كانوا غير متهمين في دينهم ولا مقصرين في معرفتهم»[1].

وقال الحافظ ابن رجبٍ الحنبلي: «والمأذون في تعلمه: علم التسيير لا علم التأثير، فإنه باطل محرم، قليله و كثيره. أما علم التسيير، فإذا تعلم ما يحتاج إليه للاهتداء، ومعرفة القبلة والطريق كان جائزًا عند الجمهور. وما زاد عليه فلا حاجة إليه، وهو يشغل عما هو أهم منه، وربما أدى تدقيق النظر فيه إلى إساءة الظن بمحاريب المسلمين في أمصارهم، كما وقع ذلك كثيرًا من أهل هذا العلم قديمًا وحديثًا، وذلك يفضي إلى اعتقاده خطأ الصحابة والتابعين في صلاتهم في كثير من الأمصار، وهو باطل»[2].

ونقل ابن عابدين الحنفي عن (مختارات النوازل) أن علم النجوم في نفسه حسنٌ غير مذموم؛ إذ هو قسمان:

(١) معالم السنن، الخطابي ٥/ ٣٧١-٣٧٢، مع مختصر المنذري.

(٢) فضل علم السلف على علم الخلف، ابن رجب الحنبلي، ص٣٤-٣٥.

أحدهما: حسابيٌ وهو حق، وقد نطق به الكتاب، قال تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥]. أي: سيرهما بحساب.

والثاني: استدلاليٌ بسير النجوم وحركة الأفلاك على الحوادث بقضاء الله تعالى وقدره، وهو جائز، كاستدلال الطبيب بالنبض على الصحة والمرض.

ولو لم يعتقد بقضاء الله تعالى أو ادعى علم الغيب بنفسه يكفر. ثم إن تعلم ما يعرف به مواقيت الصلاة والقبلة: لا بأس به[(١)].

وأما الشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ، فقد جعل التنجيم ثلاثة أقسام:

الأول: وهو القول بأن الموجودات في العالم السفلي مركبة على تأثير الكواكب والروحانيات، وأن الكواكب فاعلة مختارة. وهو قول الصابئة المنجمين الذين بعث إليهم إبراهيم الخليل عليه السلام. وهذا كفر بإجماع المسلمين.

الثاني: الاستدلال على الحوادث الأرضية بمسير الكواكب، واجتماعها وافتراقها، ونحو ذلك. ويقول: إن ذلك بتقدير الله ومشيئته، فلا ريب في تحريم ذلك. واختلف المتأخرون في تكفير القائل بذلك، وينبغي أن يقطع بكفره؛ لأنها دعوى لعلم الغيب، الذي استأثر الله تعالى بعلمه، بما لا يدل عليه.

الثالث: وهو تعلم منازل القمر والشمس؛ للاستدلال بذلك على القبلة وأوقات الصلوات والفصول[(٢)].

(١) حاشية ابن عابدين ١/ ٤٣-٤٤ و٤/ ٢٤٣.

ثالثًا: معرفة نوع الجنين وعلم الغيب:

تقدمت الإشارة في مفاتح الغيب إلى اختصاص الله سبحانه وتعالى بعلم ما في الأرحام، وقد يقع في أذهان بعض الناس أن البشر يستطيعون أن يعلموا ما في الأرحام بمعرفة جنس الجنين هل هو ذكر أو أنثى؟ وذلك عندما يمكن أن تغرز إبرة لسحب نقطة من السائل الامنيوسي لفحص خلال الجنين، هل تحمل شارة الذكورة أو الأنوثة، ويكون ذلك بعد مضي أربعة أشهر على الأقل من الحمل[(٣)].

وقد يخيل لبعضهم أن في هذا معرفةً للغيب الذي اختص الله تعالى به. وهنا ينبغي أن نلاحظ جملة أمور لا يجوز أن تغيب عن أذهاننا؛ إذ هي تلقي ضوءًا على ذلك، وتحرر محل الخلاف، وتحدد الإجابة، وتنفي الشبهة والظن إن شاء الله تعالى.

١. إن الله تعالى يعلم علمًا يقينيًا قاطعًا منذ الأزل بكل التفاصيل والأحوال

(٢) تيسير العزيز الحميد، ص٤٤١-٤٤٨.

(٣) انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن، محمد علي البار، ص ٢٩٧- ٢٩٩.

للجنين، من ذكورة وأنوثة، وصفات أخرى كالتمام والنقص في الخلقة والعدد إلخ. فهو بالنسبة لله تعالى علمٌ يقينيٌ شامل حتى قبل أن يوجد الجنين نفسه.

٢. إن الطريقة التي سبقت الإشارة إليها في معرفة نوع الجنين إنما تكون بعد مضي أربعة أشهر، وأما قبل ذلك فلا تكون متيسرة إن لم تكن مستحيلة. أما الجنين ذاته فإنه لا يمكن تمييزه ولو نزل سقطًا وشرح تشريحًا كاملًا، فلا يعرف جنسه؛ لأن الغدة التناسلية لم تتميز؛ إذ هي لا تتميز قبل نهاية الأسبوع الرحمي السادس حتى تعرف هل هي خصية أو مبيض[١]. ولم يخف على الله تعالى العلم للجنين حتى في هذه المرحلة.

٣. وكذلك عندما يستخرجون نقطة من السائل الامنيوسي بعد المدة السالفة تكون قد أصبحت أمامهم في عالم الشهادة، أي: لم تعد غيبًا، ولم يعد معرفة ما يتعلق بالجنين في هذه الحال غيبًا. والكلام منصبٌ على معرفة الغيب، لا على معرفة الشيء في عالم الشهادة والحس.

٤. ثم إن معرفة البشر رغم ذلك معرفة ظنية قابلة للخطأ والصواب، ومعرفة جزئية مبتورة ناقصة، فهي ظنٌ وليست علمًا يقينيًا.

وفي خلال المدة التي تعقب الشهور الأربعة الأولى من بدء الحمل لا يكون الجنين في مرحلة الغيب المطلق الذي حجبه الله تعالى عن الخلق جميعًا، بل إن الملك الموكل يعرف ذلك بإخبار الله تعالى.

كما جاء في الحديث الصحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق قال: (**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون في ذلك علقةً مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغةً مثل ذلك، ثم يرسل الله الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلماتٍ: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقيٌ أو سعيدٌ، فو الذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراعٌ، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينها وبينه إلا ذراعٌ، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**)[٢].

(١) المصدر السابق، ص ٢٩٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، ٤/ ١١١، رقم ٣٢٠٨، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه،

وفي بعض طرق الحديث: **(ثم يبعث الله ملكًا بأربع كلماتٍ: فيكتب عمله، وأجله، ورزقه، وشقيٌّ أو سعيدٌ، ثم ينفخ فيه الروح)** الحديث[1].

وفي حديث حذيفة بن أسيد، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين أو خمس وأربعين ليلة، فيقول: يا رب أشقيٌّ أو سعيدٌ؟ فيكتبان، فيقول: أي رب أذكرٌ أم أنثى؟ فيكتبان، ويكتب عمله، وأثره، وأجله، ورزقه، ثم تطوى الصحف فلا يزاد فيها ولا ينقص)**[2].

ففي هذه المرحلة قد أعلم الله تعالى الملك الموكل بالنطفة بالكلمات السابقة، فأصبح الملك يعرفهم، فخرجت عندئذ عن كونها من الغيب المطلق الذي اختص الله به، ولا مانع بعد ذلك أن يهيئ الله تعالى للإنسان أداة أو وسيلة للتعرف على شيء من ذلك ظنًا أو يقينًا، وكأن عموم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى قد دخله التخصيص بحديث ابن مسعود وحديث حذيفة بن أسيد، فيقبل أيضًا تخصيصًا آخر بدليل ظني.

وأما المرحلة السابقة لإعلام الله تعالى الملك بذلك فإنها محجوبة قطعًا عن كل الخلق، ولا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

قال ابن قيم الجوزية: «والتحقيق في معنى الآية: أنه يعلم مدة الحمل وما يحدث فيها من الزيادة والنقصان، فهو العالم بذلك دونكم، كما هو العالم بما تحمل كل أنثى هل هو ذكر أو أنثى؟ وهذا أحد أنواع الغيب التي لا يعلمها إلا الله، كما في (الصحيح) عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: **(مفاتيح الغيب خمسٌ لا يعلمهن إلا الله: لا يعلم متى تجيء الساعة إلا الله، ولا يعلم ما في غدٍ إلا الله، ولا يعلم متى يجيء الغيث إلا الله، ولا يعلم ما في الأرحام إلا الله، ولا تدري نفسٌ بأي أرضٍ تموت إلا الله)**[3].

فهو سبحانه المتفرد بعلم ما في الرحم، وعلم وقت إقامته فيه، وما يزيد من بدنه، وما ينقص. وما عدا هذا القول فهو من توابعه ولوازمه، كالسقط التام، ورؤية الدم، وانقطاعه»[4].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم، ٤/ ١٣٣، رقم ٣٣٣٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه، ٤/ ٢٠٣٧، رقم ٢٦٤٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستسقاء، باب لا يعلم متى يجيء المطر إلا الله، ٢/ ٣٣، رقم ١٠٣٩.

(٤) تحفة المودود بأحكام المولود، ابن القيم، ص ٣٨١-٣٨٢.

وقال أبو بكر الجصاص: «لا يعلم أحدٌ الفرق بين العلقة التي يكون منها الولد وبين ما لا يكون منها الولد إلا أن يكون قد شاهد علقًا كان منه الولد وعلقًا لم يكن منه الولد، فيعرف بالعادة الفرق بين ما كان منه ولد وبين ما لم يكن منه ولد بعلامة توجد في أحدهما دون الآخر في مجرى العادة وأكثر الظن، كما يعرف كثير من الأعراب السحابة التي يكون منها المطر والسحابة التي لا يكون منها المطر، وذلك بما قد عرفوه من العلامات التي لا تكاد تتخلف في الأعم الأكثر.

فأما العلقة التي كان منها الولد فمستحيل أن يشاهدها إنسان قبل كون الولد منها متميزة من العلقة التي لم يكن منها ولد، وذلك شيء قد استأثر الله بعلمه إلا من اطلع عليه من ملائكته حين يأمره بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد.

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

وقال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾. وهو عالم بكل شيء سبحانه وتعالى ولكنه خص نفسه بالعلم بالأرحام في هذا الموضع إعلامًا لنا أن أحدًا غيره لا يعلم ذلك، وأنه من علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله ومن ارتضى من رسول. قال الله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧]. والله أعلم»[(١)].

وأيضًا: إن علم ما في الأرحام الذي لا يعلمه إلا الله هو علم ما تغيض الأرحام، فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن عدد ومسمى مفاتح الغيب في صيغتين: الصيغة الأولى: تشير إلى القضايا التي وردت في آية سورة لقمان، ففي حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (**مفاتح الغيب خمسٌ، ثم قرأ:** ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾)[(٢)].

وفي الصيغة الثانية: عن ابن عمر أيضًا، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**مفاتيح الغيب خمسٌ لا يعلمها إلا الله، لا يعلم ما في غدٍ إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحدٌ إلا الله، ولا تدري نفسٌ بأي أرضٍ تموت، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله**)[(٣)].

فنحن الآن أمام حديثين وردا بصيغتين

(١) أحكام القرآن، الجصاص ٣/ ٢٢٨.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب قوله: (إن الله عنده علم الساعة)، ٦/ ١١٥، رقم ٤٧٧٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قوله: (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدًا)، ٩/ ١١٦، رقم ٧٣٧٩.

مختلفتين، في موضوع واحد، هو تحديد عدد ومسمى مفاتح الغيب، وصيغة الحديث الأول تماثل صيغة الحديث الثاني، في ثلاث قضايا هي: علم الساعة، وعدم دراية الأنفس لكسبها، ومكان موتها.

وهذه الثلاثة غيب حقيقيٌ لا يعلمه إلا الله باتفاق العلماء، لكن الحديثين يختلفان في مسمى قضية إنزال المطر، وقضية ما في الأرحام.

فالحديث الأول: أشار إلى أن الصيغة العامة لهما هي مفتاح الغيب، في قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾.

وأما الحديث الثاني: فقد عدل عن صيغة العموم إلى صيغة الخصوص، فقد سماهما النبي صلى الله عليه وسلم بألفاظ مخصوصة محددة فقال: **(ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحدٌ إلا الله)**.

وبالجمع بين الروايتين يصير (غيض الأرحام)، وزمن مجيء المطر، هما الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، ومن ثم يصبح مراد النبي صلى الله عليه وسلم في اللفظ العام في آية سورة لقمان بناء على الحديث الأول، هو المعنى المحدد باللفظ الخاص في الحديث الثاني، وبهذا تتوافق النصوص وينتهي الإشكال، و يكون (غيض الأرحام) هو أحد مفاتح الغيب الخمس، لا الذكورة ولا الأنوثة ولا العلم بصفات الجنين، ويكون أيضًا العلم بوقت نزول المطر الوارد في الحديث هو أحد مفاتح الغيب الخمس، لا مطلق إنزال الغيث الوارد في الآية الكريمة[1].

وهنا يرد السؤال ما هو (غيض الأرحام)؟

يطلق الغيض في اللغة على: النقص والغور، والذهاب، والنضوب. وقد جاء في المعاجم اللغوية: غاض الماء غيضًا ومغاضًا ومغيضًا: قل ونقص، أو غار فذهب، أو قل ونضب، أو نزل في الأرض وغاب فيها. وغاضت الدرة: احتبس لبنها ونقص[2].

وقد دار تفسير العلماء لـ (غيض الأرحام) حول معنيين:

الأول: الدم الذي ينزل على المرأة الحامل.

والثاني: هو السقط الناقص للأجنة قبل تمام خلقها.

إذن يمكننا القول بأن السقط المفسر للغيض والمراد في كلام علماء اللغة والتفسير هو: الجنين الذي سقط من بطن أمه قبل اكتمال خلقه، أو هو الجنين الذي

(١) مفاتح الغيب وعلم ما في الأرحام، مقال للدكتور عبد الجواد محمد الصاوي، بمجلة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، تصدرها رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، العدد ٢٨ ص٣٣.

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/٦٦٨-٦٦٩.

يهلك في الرحم، ويتحلل ويغور وتختفي آثاره منها، ويصدق عليه أن الرحم تبتلعه كما تبتلع الأرض الماء[1].

وعلم الأجنة الحديث يجلي الحقيقة؛ حيث يقول علماء الأجنة: عندما تهلك الأجنة في الأسابيع الثمانية الأولى من عمرها، إما أن تسقط خارج الرحم، أو تتحلل وتختفي تماما من داخله، ويسمي علماء الأجنة هذا الهلاك بصورتيه: الإسقاط التلقائي المبكر. وهو متوافق تمامًا مع أقوال علماء اللغة والتفسير في تعريفهم للغيض.

وعليه يمكننا أن نقول: إن (غيض الأرحام) هو الإسقاط التلقائي المبكر. وهو الذي يحدث خلال الأسابيع الثمانية الأولى من الحمل، وهو ظاهرة شائعة، ونسبة حدوثه كبيرة، إذ تصل إلى حوالي ٦٠٪، في الأسابيع الثمانية الأولى من الحمل.

وفي عدة مشاهدات للسقط المبكر لم يكن الجنين موجودًا، أي: إن الجنين قد تحلل واختفى داخل الرحم. وعدم رؤية جنينٍ في حويصلة الحمل، يسمى: (كيس الحمل الفارغ).

وتمثل هذه الحالات حوالي نصف حالات السقط التلقائي المبكر، وبعد اكتشاف جهاز الأشعة فوق الصوتية واستخدامه في تشخيص الحمل ومتابعته، تأكدت حالات غور الأجنة واختفائها من داخل الأرحام[2]. والله سبحانه وتعالى أعلم.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٣٥٩-٣٦٥، ومعالم التنزيل، البغوي ٤/ ٢٩٧-٢٩٨.
وانظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن، محمد علي البار، ص ٦٩-٨٢.

(٢) مجلة الإعجاز العلمي في القرآن، مقال الدكتور عبد الجواد الصاوي ص ٣٥، و له أيضًا: غيض القرآن بمجلة الفرقان الأردنية، العدد ٥٢، جمادى الأولى ٢٠٠٦م.

نتائج الإيمان بالغيب أو إنكاره

إن الإيمان بكل الأركان وعلى رأسها الركن الأول والأعظم فيها وهو الإيمان بالله تعالى، إنما هو إيمان بالغيب. إن هذا الإيمان يثمر في نفس الإنسان ثمراتٍ كثيرةً، وله آثاره العظيمة، على مستوى الفرد والأسرة والجماعة، في الحياة الدنيا وفي الحياة الآخرة، فكل آثار الإيمان بالله تعالى وتوحيده هي آثار للإيمان بالغيب، و كل ما نجده من خير واستقامة وسعادة وتقدم و إبداع، وكل ما يتطلع الإنسان إليه من القيم و الأخلاق العالية كالتوكل على الله، و اليقين، والعلم، والصدق، والخوف من الله، والرضا، والرجاء، وغير ذلك، هذا كله وأضعافه، إنما هو أثر من آثار الإيمان بالغيب!

وعلى الجانب الآخر؛ عندما يتنكر الإنسان للإيمان بالغيب، تختلف الصورة، وتختلف النتيجة، فكل ما تعاني منه البشرية، على مستوى الفرد والجماعة والأمة، في كل المجالات، من أمراض ومساوئ ومفاسد وأدواء، كاتباع الشهوات والركون للدنيا، والشقاء والاضطراب النفسي و الاجتماعي، والقلق ونحوه، علاوة على التمزق النفسي والضياع والتيه، وإطفاء نور الفطرة التي فطر الله تعالى الإنسان عليها، مع ما ينتظره من الخلود في النار في الآخرة. كل هذا وغيره، إنما هو أثر ونتيجة لهذا الإنكار والإلحاد.

وفيما يلي نتحدث عن: ثمرات الإيمان بالغيب، وبعض نتائج إنكار الغيب، بحسب ما يسمح به المقام.

أولًا: ثمرات الإيمان بالغيب:

١ . تحقيق إنسانية الإنسان وكرامته.

جعل الله تعالى الإنسان أكرم المخلوقات وفضله عليها جميعها، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

وهذا التكريم الإلهي للإنسان يتجلى في صور كثيرة، يأتي على رأسها فطرة الإيمان بالغيب ومالا تدركه الحواس، والإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها الإنسان، فيتجاوز مرتبة الحيوان الذي لا يدرك إلا ما تدركه حواسه، إلى مرتبة الإنسان الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدد الذي تدركه الحواس -أو الأجهزة التي هي امتداد للحواس-.

وهي نقلة بعيدة الأثر في تصور الإنسان لحقيقة الوجود كله ولحقيقة وجوده الذاتي، ولحقيقة القوى المنطلقة في كيان هذا الوجود، وفي إحساسه بالكون وما وراء

الكون من قدرة وتدبير. كما أنها بعيدة الأثر في حياته على الأرض، فليس من يعيش في الحيز الصغير الذي تدركه حواسه كمن يعيش في الكون الكبير الذي تدركه بديهته وبصيرته، ويتلقى أصداءه وإيحاءاته في أطوائه وأعماقه، ويشعر أن مداه أوسع في الزمان والمكان من كل ما يدركه وعيه في عمره القصير المحدود. وأن وراء الكون ظاهره وخافيه، حقيقة أكبر من الكون، هي التي صدر عنها، واستمد من وجودها وجوده، حقيقة الذات الإلهية التي لا تدركها الأبصار ولا تحيط بها العقول.

وعندئذ تصان الطاقة الفكرية المحدودة المجال عن التبدد والتمزق والانشغال بما لم تخلق له، وما لم توهب القدرة للإحاطة به، وما لا يجدي شيئا أن تنفق فيه، وهذا الاحترام لمنطق العقل في هذا الشأن هو الذي يتحلى به المؤمنون، وهو الصفة الأولى من صفات المتقين.

لقد كان الإيمان بالغيب هو مفرق الطريق في ارتقاء الإنسان عن عالم البهيمة، ولكن جماعة الماديين في هذا الزمان -كجماعة الماديين في كل زمان- يريدون أن يعودوا بالإنسان القهقرى، إلى عالم البهيمة الذي لا وجود فيه لغير المحسوس! ويسمون هذا (تقدمية)، وهو النكسة التي وقى الله المؤمنين إياها، فجعل صفتهم المميزة، صفة: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣][1].

٢. الاستقامة وتربية الشعور الديني.

الإيمان بالغيب هو الأساس والركن الذي يقوم عليه الشعور الديني والمراقبة لله تعالى والالتزام بالأحكام الشرعية والأوامر الإلهية، وذلك يؤهل المؤمن للوقوف أمام محكمة الضمير أو النفس اللوامة التي أقسم الله تعالى بها، وهو سبحانه لا يقسم إلا بما هو عظيم، فقال: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ١-٢].

وهي محكمة باطنية، بينما محكمة المجتمع محكمة سطحية ظاهرية لا تتناول من أعمالنا إلا ما يقع تحت السمع والبصر، و لا تتناول من هذه الأعمال إلا ما يصل إلى علمها، فهل هناك محكمة تحيط بظواهرنا و بواطننا، ولا يخفى عليها شيء من أمرنا، و إن بعدنا عن أعين الرقباء؟ نعم! تلك هي المحكمة الإلهية العليا[2].

إن تربية الشعور الديني هي الدافع للاستقامة وحسن السلوك، وهي الضابط الذي يعصمنا من الجريمة ومن ارتكاب الحرام ومن مخالفة الأوامر، فاستقرار الإيمان في النفس البشرية هو سببٌ واضح في عدم مخالفة الأوامر التي يأمر بها الشارع

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ١١٨-١١٩.
(٢) دراسات إسلامية، محمد عبد الله دراز، ص٧٣-٧٨.

وهو الله -عزوجل-، حتى إن لم يكن هناك أي رقابة خارجية، فالإيمان بالله ومراقبته في السر والعلن والالتزام بأوامره تقوي علاقة الإنسان بربه، وتجعله يستشعر مراقبة الله تعالى له في كل تصرف من تصرفاته.

وهناك أمثلة من الواقع التاريخي تدل على سلطة الايمان في الاستقامة والبعد عن المأثم. ونذكر هنا مثالًا على ذلك، وهو تحريم الخمر في الإسلام، وذلك بمجرد نزول الأمر القاطع في ذلك، بينما فشلت في ذلك أكبر النظم المعاصرة رغم تقدمها المادي والعلمي؛ لأنها لا تقوم على الإيمان، أو لا تنظر إلى حلال أو حرام فيما تشرعه من قوانين.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٩٢ لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩٣].

لقد تمت هذه المعجزة التشريعية؛ لأن المنهج الرباني أخذ النفس الإنسانية بطريقته الخاصة، أخذها بسلطان الله وخشيته ومراقبته، وبحضور الله سبحانه فيها حضورًا لا تمللك الغفلة عنه لحظة من زمان أخذها جملة لا تفاريق، وعالج الفطرة بطريقة خالق الفطرة[1].

٣. محاسبة النفس والاستعداد للحساب.

إن إيمان المرء بالله تعالى، وإيمانه بكل ما ينطوي عليه من أمر الغيب، له أثره في عمق الشعور بتقوى الله وخشيته، والخوف من حسابه يوم القيامة، ويترتب على ذلك انضباط السلوك وحساسية الضمير تجاه مسئولية الإنسان عن أعماله. فإن الإسلام يرسي قاعدة المسئولية بأوسع معانيها، فهي تشمل الفرد و الجماعة، والحاكم والمحكوم، وتكون هذه المسئولية أمام محكمة الضمير أو الوجدان، كما تكون أمام الرأي العام في الجماعة، وأعلى من هذا كله المسئولية أمام الله تعالى، وهي تقتضي الاستعداد لهذا الحساب الدقيق.

وللدكتور محمد عبدالله دراز رحمه الله كلمةٌ في بيان المحكمة التي سنقف أمامها للمسئولية ونقدم فيها الحساب لمعرفة أثر ذلك في التربية والتهذيب والاستقامة. يقول

(١) انظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسمين، أبو الحسن الندوي، ص ٩٣، في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٦٦٣-٦٦٦.

رحمه الله: «إن القرآن الكريم يضعنا أمام سلطة ثلاثية كأنه يقول لنا: تصوروا أنفسكم في نقطة مركزية تحيط بكم ثلاث دوائر مدرجة الاتساع، و تصوروا أنه قد خرج من كل دائرة سهام أو أنصاف أوتار متجهة نحو هذا المركز، هي أشعة العين التي تراقبكم. انظروا في أنفسكم تجدوا محكمة، وانظروا من حولكم تجدوا محكمة، وانظروا فوقكم تجدوا محكمة، محكمة الضمير في قلوبكم، ومحكمة البشر من حولكم، ومحكمة السماء من فوقكم، و لكل واحدة منها أمانة في أعناقكم سنحاسبكم عليها»[1].

اقرءوا -إن شئتم- قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

وقال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وهذا الاستعداد للحساب لا يقتصر على الحياة الفردية، بل يمتد ليشمل مستوياتٍ أوسع وأعلى، فإن إمام المسلمين، أو رئيس الدولة بالتعبير المعاصر، كذلك يكون أكثر محاسبة للنفس واستعدادًا للحساب يوم القيامة؛ لأنه يشعر بعظم المسئولية وأهمية الولاية، فإن الولاية العامة أمانةٌ توجب المسئولية الدينية أمام الله تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء: ٥٨].

وهذا الذي جعل الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقف ليحاسب نفسه وليعلن أنه مسئول، في كلمات كثيرة مأثورة عنه، و في وقائع عملية شاهدة. وحسبنا ما قاله لجرير بن عبد الله البجلي: «يا جرير إني قاسمٌ مسئولٌ، ولو أن سخلةً بالعراق عثرت لخفت أن يسألني الله عنها: لم لم تسو لها الطريق»[2]. وغيرها من النصوص عن الخلفاء الراشدين كثيرة متوافرة، و الوقائع العملية التطبيقية شاهدة ناطقة. وما ذاك إلا ثمرة من ثمرات الإيمان بالله تعالى و بالحساب والجزاء.

٤. أثره في سلوك الفرد والجماعة: القيم والغايات.

(١) انظر: دراسات إسلامية، محمد عبد الله دراز، ص٧٣-٧٨.

(٢) أخرجه أبو يوسف في الخراج، ص١٢٧، وابن الجوزي في سيرة عمر بن الخطاب، ص١١٣.

حين يؤمن الإنسان بالغيب، فيؤمن باليوم الآخر وهو غيب، ويؤمن بالجنة والنار، وهو إيمان بالغيب -كما تقدم- ويؤمن بالجزاء والحساب، حين يؤمن بهذا كله إيمان اليقين، نستطيع أن ندرك أهمية هذا فى سلوك الفرد وسلوك الجماعة إذا عرفنا نفسية الشخص الذى لا يؤمن بالآخرة وطبيعة تصوره للحياة الدنيا وطريقة شعوره بها. إن الحياة الدنيا فى حسه هى الأولى والأخيرة، والعمر فرصة واحدة إن لم تنتهب فسوف تضيع! وإذا كان العمر -مهما طال - محدودًا بسنوات، ولذائذ الحس كثيرة ومتنوعة، فالبدار البدار!

هكذا تكون القضية فى حس الذى لا يؤمن باليوم الآخر. فرصة وحيدة محدودة ينبغى أن تنتهز ويؤخذ فيها أكبر قدر من الملذات؛ ولذلك تتكالب الجاهليات دائمًا على متاع الأرض وتتصارع عليه، وتنحصر اهتماماتها فى حدود الدنيا.

والجاهلية المعاصرة نموذج لما نقول، فما الذى يشغل الأفراد فيها ويشغل الجماعات؟

أما الفرد فهو يعمل وينتج ليحصل على أكبر قدر يستطيع الحصول عليه من المال، ثم ينفق هذا المال فى الحصول على أكبر قدر من المتاع، يستوى فى حسه أن يكون من المتاع الحلال أو الحرام! بل إن فكرة الحرام لا تخطر على باله على سبيل الجد! فالأصل عنده هو الاستمتاع، قبل أن تفوت الفرصة التى إن مضت لا تعود! فما معنى الحرام فى حسه؟! إنه ليس إلا قيدًا على المتاع! وهو قيد - فى نظره- غير معقول ولا موجب له؛ لأنه يضيع الفرص المحدودة التى لن تعود!

لذلك أيضًا فإن قيد الأخلاق وقيد الضمير وقيد المشاعر الإنسانية كلها قيود غير معقولة، كقيد الحرام سواء بسواء! ومن ثم تفسد الأخلاق فى الجاهليات، ويضعف وازع المضير وتحل المصلحة محله. أما المشاعر الإنسانية والقيم العليا فتعد سخفًا وسذاجة لا تليق بإنسان عاقل، إذا هى فوتت عليه فرصة المتاع!

أما الأمم والجماعات، فقصتها لا تختلف كثيرًا عن قصة الفرد، فكل جماعة همها الحصول على أكبر قدر من المتاع (أو المزايا بتعبيرهم!) على حساب جماعة أخرى! وكل أمة همها أن تتغلب على أمة أخرى؛ لتسلبها حظها من المتاع وتأخذه لنفسها فتنشأ من ذلك الصراعات والحروب.

وأين القيم العليا؟ وأين حقوق الإنسان؟ وأين الضمير العالمي؟ وأين العهود والمواثيق؟ وأين التعاون فى سبيل الخير؟ وأين العدل؟ وأين الإخاء والمساواة؟

إنها كلها -فى الجاهلية- ألفاظ! يلوكها الناس نفاقًا ورياء، فإذا ﴿خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤]! لأنها كلها معوقات عن المتاع فى الفرصة والوحيدة المتاحة للمتاع!

ويتقاتل الناس، ويموت منهم من يموت، ولكنهم يموتون وهم يقاتلون فى سبيل هذا المتاع الأرضي، فإذا قيل لهم: تعالوا قاتلوا فى سبيل الله، أو فى سبيل الحق المجرد الذى لا مصلحة لهم فيه مباشرة، هزوا أكتافهم وأعرضوا عنك، إن لم يهبوا لمقاتلتك أنت؛ لأنك تدعوهم إلى شيء يفسد عليهم مصالح الدنيا ومتاع الأرض!

ومن ثم تهبط القيم فى الجاهليات وتنحصر الآفاق، كما يضعف الضمير وتفسد الأخلاق. إنه لا شيء يرفع الإنسان من ثقلة الأرض -بعد الإيمان بالله- إلا الإيمان باليوم الأخر. الإيمان بأن كل متاع زائد يتنازل عنه الإنسان فى الحياة الدنيا -طاعة لله والتزامًا بأمره- يعوض عنه فى الآخرة متاعًا أشف وأعلى وأخلد وأبقى. والإيمان فى ذات الوقت بأن كل خروج على أمر الله فى الحياة الدنيا -من أجل متاع الأرض الزائل- سيجازى عليه فى الآخرة عذابًا ليس فى طوق البشر احتماله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ٥٦].

أما حين يؤمن الإنسان بالغيب، فيؤمن باليوم الآخر وبما أعد الله تعالى للمؤمنين في الجنة، فإن القضية تحسم فى حسه حسمًا كاملًا وتستقر الأمور، فكل نعيم فى الدنيا لا يقاس إلى نعيم الآخرة، ولا يساوي من جهة أخرى غمسةً واحدة فى العذاب من أجله، وكل عذابٍ فى الدنيا -فى سبيل الله- لا يقاس إلى عذاب الآخرة ولا يوازي من جهة أخرى غمسة واحدة من أجله فى النعيم. وعندئذ يقدر الإنسان على موازنة ثقلة الأرض، ويقدر على الارتفاع إلى القيم العليا والأخلاق الفاضلة والمثل الرفيعة؛ لأن يوقن بالجزاء الذى سوف يناله على ذلك كله: ﴿قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ١٥ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٦ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾ [آل عمران: ١٥ - ١٧].

٥. الخلود في جنات النعيم.

إن أعظم ثمرات الإيمان بالغيب، -وأركان الإيمان إنما هي في حقيقة الأمر إيمان بالغيب- هي دخول النعيم والخلود فيها أبدًا، ويرسم القرآن الكريم صورًا وضيئة وجميلة للمؤمنين يعرض فيها خصالهم وأحوالهم، وأثر الإيمان فى قلوبهم

وسلوكهم، تجعلنا نحبهم ونحب أن نكون منهم؛ لتنطبق علينا تلك الأوصاف الجميلة، ولنحظى برضا الله فى الدنيا والآخرة.

وهذه الصور والأوصاف كثيرة فى القرآن؛ لأن فيها دروسًا تربوية يربينا بها الله سبحانه وتعالى حتى تستقيم فطرتنا ويستقيم سلوكنا وتصلح أحوالنا. وإليك بعض النماذج منها:

قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ١٩-٢٤].

تبدأ الآيات بموازنة بين المؤمنين والكافرين يتبين منها لأول وهلة أنهم مفترقون بعضهم عن بعض فى صفاتهم ومقومات حياتهم وفكرهم. والقرآن يصف المؤمنين بأنهم هم الذين يعلمون أن ما أنزل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم من ربه هو الحق، بينما يصف الأخرين بأنهم عمى. ثم يسأل هذا السؤال الإنكاري (أي الذى جوابه دائمًا: لا) ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾ [الرعد: ١٩]؟ والجواب لابد أن يكون: لا! فمن يقول: إن الأعمى كالبصير، وإن من يعلم كمن لا يعلم؟!

والتعبير القرآنى الجميل يوحي إلينا بأن من يعلم أن القرآن والوحي حق هو المبصر، الذى يسير فى الطريق على نور، ولا يتخبط فى سيره؛ لأنه يرى ما حوله، بينما الذى يشك فى الوحي ولا يتبعه هو الأعمى الذى يتخبط فى الطريق؛ لأنه لا يراه. وهذه حقيقة، فإن المؤمن يعرف -من وحي إيمانه- ما هى غايته فى الحياة، وما الطريق الذى ينبغي أن يسلكه ليصل إلى غايته. فغايته هى إرضاء الله سبحانه وتعالى والتقرب إليه، ووسيلته هي الأعمال الصالحة، هي الطاعة لأوامر الله. بينما الكافر لا يعرف لماذا يعيش، إلا لإرضاء ملذاته القريبة، غافلًا عن النهاية التي تنتظره فى آخر الطريق.

ثم تجيء الصفات التي يتصف بها هؤلاء المؤمنون الذين يستحقون دخول الجنة، إن الصفة الكبرى التى يتصف بها أولئك العالمون بأن القرآن حق هى أنهم يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق، ولا تحدد الآية عهدًا معينًا ولا ميثاقًا معينًا، إنما تشمل كل عهد وكل ميثاق مع الله. والعهد الأكبر هو الذي أودعه الله في الفطرة وأشهد الفطرة عليه، وهو عبادة الله الواحد بلا شريك:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

ولا تنتهي صفة المؤمنين بأنهم يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق، بل يستمر السياق فيصفهم بأنهم: يصلون كل ما أمر الله به أن يوصل بإطلاق وعموم وشمول، ومع القيام بهذه الصلات التى أمر الله بوصلها فهم يخشون ربهم، وهي خشية بالغيب، وهذه الخشية تجعلهم يتصرفون فى أمورهم بما يرضي الله، فيتعاملون بالصدق والأمانة والإخلاص؛ خشية أن يغضب الله عليهم، وكذلك يخافون سوء الحساب، فيتجنبون الأعمال والأقوال التى تعرضهم للحساب الشديد، مع سائر ما وصفهم الله تعالى به من صفات.

ثم يرتب الله تعالى على ذلك كله هذا الجزاء العظيم الذي يتطلع إليه المؤمنون، وياله من جزاء! وياله من جائزة جميلة على السلوك الجميل! تتجاوزهم لتصل إلى من صلح من الآباء والأزواج و الذريات. ثم يكون التكريم والفضل الآخر العظيم والاحتفاء الكبير: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢-٢٤].

وحسبنا في هذا المقام هذه الإشارة التي تومئ إلى الآيات الكريمة التي تتضافر لتدل على هذا الأثر للإيمان في الخلود بجنات النعيم، ونسأله تعالى الجنة وما يقرب إليه من قول أو عمل أو اعتقاد.

ثانيًا: نتائج إنكار الغيب:

١. إنكار الغيب إلحادٌ ونقصٌ في العلم، وعائقٌ أمام التقدم العلمي.

إن التنكر للغيب وجحوده من قبل الماديين، يبدو في مفهوم العلم المادي الحديث جهلًا وضلالًا وبعدًا عن العلم والحق؛ لأن العلم المادي لا يستطيع أن يحكم على الغيب؛ لأنه خارج عن مجاله، فلا يجوز علميًا إنكار شيء لأجل أنه غير مشاهد أو غير محس، أو لأنه غير قابل للتفسير.

يقول الدكتور ألكسيس كاريل: «وإذن فقد سجن الإنسان نفسه بطريقة تحكمية في حدود حواسه الخمس منذ عصر النهضة (الأوربية). أما اليوم: فنحن نعرف الكثير من ظواهر التليباثي أو (انتقال الأفكار) التي لا تقبل النقض[1]. ولا شك أن طبيعة

(١) كنداء عمر بن الخطاب رضي الله عنه في المدينة المنورة لسارية بن زنيم في العراق عندما كان على رأس جيش الفتح لبعض البلاد.فبينما عمر يخطب جعل ينادي: «يا

التليباثي ورؤية الماضي والتنبؤ بالمستقبل لا تزال غير معروفة في أيامنا هذه، كما كانت في عهد أرسطو، ولكنا نعلم أنه لا يجوز لنا بحالٍ ما أن ننكر ظاهرة لمجرد أنها غير قابلة للتفسير أو عسيرة على الملاحظة»[١].

وبمقدار ما وهب الله تعالى الإنسان من القدرة على إدراك قوانين المادة، و التعرف على طاقات الكون ومذخوراته، بمقدار ما حجب عنه من أسرار هذا الوجود وخفاياه؛ ولذلك نجد الذين يتشدقون بالعلم والمنهج العلمي اليوم، لينكروا الغيب أو ما وراء عالم الحس والمادة، نجدهم متناقضين مع العلم الذي يفرحون به؛ لأن العلم نفسه يقف أمام كثير من الظواهر لا يستطيع لها تفسيرًا ماديًا، وإنما يخضعون فيها لقدر غيبي، جعله الله تعالى جزءًا من نواميس الكون.

ويؤكد هذا ويوضح مبدأ عدم التأكد (نظرية هيزنبرغ) الذي أسهم بمشاركة مهمة في تركيب الذرة، فقد توصل من خلال أبحاثه النظرية على التركيب الذري، إلى مبدأ عدم التأكد الذي ينص على «استحالة تعيين موقع الإلكترون وسرعته معًا وبدقة». وفي ضوء هذا المبدأ يلاحظ أن المنهج العلمي التجريبي نفسه يقوم على الاحتمال، فهو يفترض أشياء وتجارب خيالية مستحيلة ثم يبني عليها نظريات معينة[٢].

وهذا كله وغيره أيضًا يؤكد أن إنكار الغيب إلحادٌ ونقصٌ في العلم وعائق أمام التقدم العلمي، فلو كان الإيمان بالغيب والتطلع إليه عنصرًا من عناصر الفكرة الدينية أو العقيدة وحدها، لكان الإنكار للغيب وما وراء الحس إلحادًا فحسب، ولو كانت هي النتيجة الختامية لتقدم العلوم واتساع أفقها لكان هذا الإنكار نقصًا في العلم وقصرًا في النظر وكفى. ولكن تلك الفطرة للإيمان بالغيب بنت الغريزة و الجبلة، فالأمر أعظم من النقص في العلم، إنه نكسة في فطرة الإنسان ترده إلى مستوى الحيوان الأعجم[٣].

٢. اتباع الهوى والشهوات والركون للدنيا.

ساري الجبل ثلاثًا! ثم قدم رسول الجيش، فسأله عمر، فقال: يا أمير المؤمنين هزمنا، فبينما نحن كذلك إذ سمعنا مناديًا: يا سارية الجبل، ثلاثًا، فأسندنا ظهورنا بالجبل، فهزمهم الله.فقيل لعمر: إنك كنت تصيح بذلك».

انظر:البداية والنهاية، ابن كثير ٧/ ١٣١، والسلسلة الصحيحة، الألباني ٣/ ١٠١.

(١) تأملات في سلوك الإنسان، إلكسيس كاريل، ص ١٦٢.

(٢) انظر: الكيمياء العامة تفاعل المادة، الطاقة، الإنسان، تأليف فريدريك لونجو، ترجمة مروان كمال ومجموعة أساتذة جامعيين، ص ٦٦-٦٨، عالم الغيب والشهادة في التصور الإسلامي، عثمان جمعة ضميرية، ص٥٧-٦١.

(٣) انظر: الدين، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، محمد عبد الله دراز، ص٩٥.

عندما يغيب الإيمان بالغيب، وعندما يغفل الإنسان عن الآخرة وما فيها من حساب وجزاء، عندئذ يقع الإنسان فريسة الأمراض التي تصيب الفطرة البشرية، فيغلب عليه اتباع الهوى والشهوات التي تجعل الإنسان عبدًا لها، وتسيطر عليه فلا يستطيع الخلاص منها، وهي التي تورده المهالك وتنزل فيه بالدركات.

ذلك أن دين الله المنزل يشمل دائمًا أحكامًا إلهية يأمر الله تعالى البشر أن يلتزموا بها وينفذوها؛ لتستقيم حياتهم وتتوازن. قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

ولكن حين يغلب عليها الهوى وحب الشهوات فإنها تضيق بما أنزل الله، وتحب أن تتبع شهواتها. وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١].

﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤].

ومن أجل هذه الشهوات يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة كما يصفهم الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [النحل: ١٠٧-١٠٨].

﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم: ٣].

وهؤلاء يرفضون الهدى الرباني، ويرفضون أن يعترفوا بالوحي المنزل من عند الله تعالى، ولو استيقنوا في دخيلة أنفسهم أنه الحق؛ لأنهم لو اعترفوا لكان عليهم أن يلتزموا، وهم يكرهون الالتزام بما أنزل الله؛ لأن شهواتهم تغلبهم وتثقل في حسهم؛ لذلك ينكرون أن ما جاء من عند الله هو الحق، ويجادلون فيه بالباطل، ويضعون قواعد وموازين للحياة وللأعمال غير ما قرر الله، ثم يزعمون أنهم هم الذين على الحق، وأن ما يتبعونه من نظم وقواعد وموازين أحق أن يتبع مما أنزل الله، فيقعون

بذلك في الشرك -شرك الاتباع-.

وعلى هذه الصورة، كانت الجاهلية العربية التي ذكرها الله في القرآن ذكرًا مفصلًا في كثير من الآيات الكريمة في السور المكية بخاصة. وعلى هذه الصورة كذلك نجد نماذج كثيرة من الجاهلية المعاصرة التي غرقت في الشهوات إلى أذنيها، ورفضت الاعتراف بالوحي الرباني؛ لأنها تريد أن تتبع أهواءها، ولا تريد أن تلتزم بما أنزل الله[1].

٣. الخلود في النار.

تقدم آنفًا أن أعظم ثمرات الإيمان بالله تعالى والإيمان بالغيب هو دخول جنات النعيم، مع ما أعده الله تعالى للمؤمنين من أنواع مما لا يخطر على قلب بشر. وعلى الضفة الأخرى: فإن إنكار الغيب وجحوده -الذي هو في حقيقته إنكار لله تعالى وإنكار لما أخبر الله به من الغيوب، كالجنة والنار والملائكة- يترتب عليه الخلود في نار جهنم، ولن تنفعه تلك الأعمال التي كان يعملها، ويظن أنها تدفع عنه شيئًا، أو أنها تقبل مع ما هو عليه من ضلال وحجود.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

وأبان الله تعالى عن مصيرهم وخلودهم في النار، فقال سبحانه: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧١ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧١- ٧٢].

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: «لما ذكر الله تعالى حكمه بين عباده، الذين جمعهم في خلقه ورزقه وتدبيره، واجتماعهم في الدنيا، واجتماعهم في موقف القيامة، فرقهم تعالى عند جزائهم، كما افترقوا في الدنيا بالإيمان والكفر، والتقوى والفجور، فقال: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أي: سوقًا عنيفًا، يضربون بالسياط الموجعة، من الزبانية الغلاظ الشداد، إلى شر محبس وأفظع موضع، وهي جهنم التي قد جمعت كل عذاب، وحضرها كل شقاء، وزال عنها كل سرور.

ويساقون إليها ﴿زُمَرًا﴾ أي: فرقًا متفرقة، كل زمرة مع الزمرة التي تناسب عملها، وتشاكل سعيها، يلعن بعضهم بعضًا، ويبرأ بعضهم من بعض. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾ أي: وصلوا إلى ساحتها ﴿فُتِحَتۡ﴾ لهم

(١) انظر: ركائز الإيمان، محمد قطب، ص ٧٨.

أي: لأجلهم ﴿أَبْوَٰبُهَا﴾ لقدومهم وقرى لنزولهم. ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ مهنئين لهم بالشقاء الأبدي، والعذاب السرمدي، وموبخين لهم على الأعمال التي أوصلتهم إلى هذا المحل الفظيع.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أي: من جنسكم تعرفونهم وتعرفون صدقهم، وتتمكنون من التلقي عنهم؟ ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ التي أرسلهم الله بها، الدالة على الحق اليقين بأوضح البراهين. ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: وهذا يوجب عليكم اتباعهم والحذر من عذاب هذا اليوم، باستعمال تقواه، وقد كانت حالكم بخلاف هذه الحال؟

﴿قَالُوا۟﴾ مقرين بذنبهم، وأن حجة الله قامت عليهم: ﴿بَلَىٰ﴾ قد جاءتنا رسل ربنا بآياته وبيناته، وبينوا لنا غاية التبيين، وحذرونا من هذا اليوم ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: بسبب كفرهم وجبت عليهم كلمة العذاب، التي هي لكل من كفر بآيات الله، وجحد ما جاءت به المرسلون، فاعترفوا بذنبهم وقيام الحجة عليهم.

فـ﴿قِيلَ﴾ لهم على وجه الإهانة والإذلال: ﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ كل طائفة تدخل من الباب الذي يناسبها ويوافق عملها. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أبدًا، لا يظعنون عنها، ولا يفتر عنهم العذاب ساعة ولا ينظرون. ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: بئس المقر، النار مقرهم؛ وذلك لأنهم تكبروا على الحق، فجازاهم الله من جنس عملهم، بالإهانة والذل، والخزي»[1].

وفي آيات كثيرة جاء النص بصيغة التأبيد كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ١٦٨ - ١٦٩].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٣ - ٦٥].

وفي هذه الآية الكريمة الأخيرة إشارة إلى أن كفر هؤلاء الكفار وما ترتب عليه من تخليد في النار على جهة التأبيد، وليس على جهة المكث الطويل، كما قد تفيده العبارة أحيانًا. في هذا إشارة إلى أن هذا الحكم عليهم بالكفر إنما هو نتيجة تكذيبهم بالساعة، وهي غيب من غيوب كثيرة. والله أعلم.

موضوعات ذات صلة:

الإيمان، التقوى، التوحيد، اليوم الآخر

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٧٣٠.